شرح الجواب الفاصل بتمييز الحق من الباطل

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان

المدرس في المسجد النبوي

اعتنى به

عبد العزيز بن حمود البليهي






شرح الجواب الفاصل
بتمييز الحق من الباطل

حقوق الطبع محفوظة

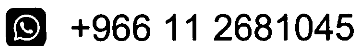
الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤م

صف وتصميم وإخراج

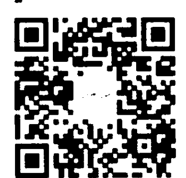
مدار القبس للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض



madarulqabas@gmail.com @madarulqabas

المتجر الإلكتروني:





Abdullah B. Mohd. Al-Ghunaiman
Profit Mohd. Mosque's Teacher
Madina Munawarah
Propeganda College
Islamic League

عبد الله بن محمد الغنيمان
المدرس بالمسجد النبوي الشريف
المدينة المنورة
كلية الدعـــوة - الجامعة الاسلامية



DATE .... التاريخ ٢٤/٢/١٤٢٥هـ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه

وبعد فقد ألقيت دروساً في بعض الدورات في رسالة شيخ الإسلام الجواب الفاصل وقام الأخ عبدالعزيز بن احمود البليهي بتفريغها وقد استأذن بطبعها فأذنت له رجاء نفعها والله الموفق

قاله عبدالله بن محمد الغنيمان

مُقدِّمةُ المُعتَني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

هذا شرح لكتاب «**الجواب الفاصل بتمييز الحقِّ من الباطل لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ»، وأصله دروسٌ علمية ألقاها فضيلة شيخنا عبد الله بن محمد الغنيمان ـ حفظه الله ـ في بعض الدورات العلمية[1]، فأفاد فيها وأجاد ـ جزاه الله خيرًا ونفع به ـ، فُرِّغت وجُمِعت ورُوجِعَت، وعُزِيَت فيها الآيات، وخُرِّجت الأحاديث، وعُزِيَت الأقوال إلى قائليها، وغير ذلك مما عهد في العناية العلمية، فلله الحمد والمنَّة.

هذا، ونسأل اللهَ العليَّ القدير أن يغفرَ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ويتغمَّدَه بواسع رحمته، كما نسأله جل وعلا أن يجزيَ شيخنا خير الجزاء، وأن يبارك له في عمره وعلمه وعمله، ويصلح له ذريته، وأن يجعلنا وإياهم هُداةً مُهتدين؛ إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

وإنْ تَجِدْ عيبًا فَسُدَّ الخَلَلَا فَجَلَّ مَنْ لا عيبَ فيهِ وعَلا

---

(١) وقد كانت هذه الدروس في مدينة بريدة بجامع ابن القيم ـ حي الراشد ـ عام ١٤٣٩هـ.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وصلَّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد العزيز بن حمود البليهي

a.h.albalhe@gmail.com

المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله وصحابته، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، **أما بعدُ:**

فإنَّ الله ﷻ خلقنا لعبادته، والعبادةُ لا تكون عبادةً إلا إذا كانت متلقَّاةً عن النبي ﷺ، وإلا تكون بدعًا وضلالًا، والعبادة: «اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[١]، التي في القلوب، والتي في الجوارح، فلا بدَّ من العمل؛ عملِ القلب أولًا، والذي يشتمل على: (العلم، والإرادة، والإخلاص، والصدق، والخوف، والخشية)، وما أشبه ذلك، والعمل الذي يكون ظاهرًا.

ثم إنَّ عمل القلب لا بد أن يكون تأسَّس على نصوصٍ من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لأن التوحيدَ منه العمليُّ، ومنه الاعتقاديُّ والإراديُّ، فالاعتقاديُّ والإراديُّ يعتمد على النصوص وكذلك العملي، فكلُّها تعتمد على النصوص ولا بدَّ، ولهذا اعتنى العلماء بهذا الأمر كثيرًا، والصحابة رِضوانُ اللهِ عليهِم، ومن اتبعهم إلى اليوم، لا يختلفون في هذا، وإن اختلفوا في فُهُوم النصوص العملية؛ لأن النص إذا جاء يجب أن يُعمَل به، سواءٌ كان في العقائد، أو في العمليات، ولا يجوز مخالفته بحالٍ.

ولكن آيات كتاب الله، وأحاديث رسوله ﷺ جاءت جوامِعَ

---

(١) العبودية لابن تيمية (ص٤٤).

وكلياتٍ، كلٌّ كلية تدلُّ على أمور كثيرة جدًا، والله ﷻ فاوَتَ بين عباده في الفُهُوم؛ لأن هذا الكتاب ـ كتاب الله ﷻ الذي أنزله على رسوله ـ جعله للأمة إلى قيام الساعة، فكلُّ حدثٍ يحدث، حكمُه موجودٌ في الكتاب، ولكنه يحتاج إلى فهم واستنتاجٍ وقياسٍ على القضايا الأخرى التي نُصَّ عليها في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

ولأجل ذلك اختلف الأئمة في العمليات؛ أي في هذه الكليات التي جعلها الله ﷻ محلًّا لعمل الناس والحوادث التي تحدث منهم، وكذلك أحاديث رسوله ﷺ؛ فإنه أُعطِي جوامع الكلم[1] صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

والاعتقاد الذي يكون في القلب ـ في ربِّ العالمين ﷻ أولًا ـ لا بد فيه من النصوص، وليس للعقل فيه مدخلٌ، وإنما هو مبنيٌّ على النصوص التي جاءت من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولهذا صار محلَّ اتفاق بين الأئمة كلِّهم لا اختلافَ فيه.

قد يقال: هذه عقيدة الشافعي، وهذه عقيدة مالك، وهذه عقيدة أبي حنيفة، وهذه عقيدة فلان، وهكذا؛ العقيدة واحدة، وإن اختلفت العبارات والمسمَّيات، والصحابة ﭫ ما اختلفوا في شيء من ذلك.

بعض الناس قد يكون عنده تعنُّتٌ وطلبٌ للجدل وللخلاف، وما أشبه ذلك، فيأتي بأشياء ليست من الخلاف في شيء؛ مثل قولهم: إن بعض الصحابة اختلفوا في رؤية النبي ﷺ لربِّه.

وما نَدِينُ به ونعتقده أنه إذا ثبت النصُّ فلا خلاف، وقد يبلغ بعضَ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» برقم (٢٩٧٧)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة ﭬ.

العلماء نصٌّ فيقول به، والآخر لم يبلغه ذلك فلا يقول به، وعليه فقد يظهر الخلاف بين الاثنين شكلًا، ولكن في حقيقة الأمر أنه لا خلافَ واقِعٌ؛ حيث استند الأول لدليل لم يعلَمْه الثاني، فيكون بذلك ليس محلَّ خلاف.

وفي هذه الرسالة سوف نتكلم عليها حسب الاستطاعة؛ فهي في العقيدة، في الله ﷻ: أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وما يجب على العبد أن يعتقده في الله، وهذا لا بد فيه من النصوص، فهو مبني على النص، والقاعدة التي يقولها أهل السنة في هذا: «إن صفات الله ﷻ وأسماءه توقيفية»[1].

ومعنى «توقيفية»: أنه يُوقَفُ معها على النصوص فقط، فلا يُستَحدث شيءٌ لم يأتِ في كتاب الله، ولا في أحاديث رسوله ﷺ.

ورسولنا ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء، والشرائع التي سبقته نُسِخَتْ بالشرع الذي جاء به، وإن كان كما يقول العلماء: «الأخبار لا يدخلها النسخ»[2]؛ يعني: الإخبار عن الله ﷻ، وعن صفاته، وعن أفعاله، فهذه لا يدخلها النسخ، وإنما النسخ يكون في أفعال العباد وما كُلِّفوا به.

والرسالة التي نقوم بشرحها ـ بعون الله ـ مجال الكلام فيها محدَّد وغير واسع؛ لأنها سؤال عن «مسألة العلو»: هل الله ﷻ في أعلى عليين؟

فنبدأ، ومن الله التوفيق والسداد.

---

(١) انظر: أصول السنة لابن أبي زمنين (ص٦٠)، الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي (ص٣٢٦)، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٢/ ١٠٨)، التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٣٧)، تفسير البغوي (٢/ ٢٥٤)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ١٢٤).

(٢) انظر: أقوال العلماء في هذه المسألة في الواضح في أصول الفقه لابن عقيل (٤/ ٢٤٤).

﴿ «سُئل شيخُ الإسلامِ، تقي الدين، أبو العباس، أحمد ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: عن رجلَينِ اختلفا في الاعتقاد، فقال أحدُهما: من لا يعتقد أنَّ الله سبحانه في السماء فهو ضالٌّ.

﴿ وقال الآخر: إنَّ الله سبحانه لا ينحصر في مكانٍ، وهما شافعيان، فبيِّنوا لنا ما نتبعه من عقيدة الشافعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما الصواب في ذلك؟ «أفتونا مأجورين رحمكم الله».

﴿ فقال: الجواب، الحمد لله، اعتقاد الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واعتقاد سلف أئمَّة الإسلام؛ كمالكٍ، والثَّوريِّ، والأوزاعيِّ، وابنِ المبارك، وأحمد بن حنبلٍ، وإسحاقَ بن راهويه، وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم؛ كالفُضَيل بن عِيَاض، وأبي سليمان الدَّاراني، وسهل بن عبد الله التُّسْتَري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاعٌ في أصولِ الدِّين.

﴿ وكذلك أبو حنيفة - رحمة الله عليه - فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافقٌ لاعتقاد هؤلاء، واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة، رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان، وهو ما نَطَق به الكتابُ والسُّنَّة».

الشَرح

قال: «سُئل شيخُ الإسلامِ...»

بدأت الرسالة بسؤالٍ، والحقيقة أنَّ تراث الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الغالب أنه أجوبةٌ لأسئلةٍ، حتى الكتب الكبيرة؛ مثل «منهاج السنة»، و«درء التعارض»، وغيرهما، والسؤال أحيانًا يأتي من طلبة العلم، وأحيانًا يأتي

من أفراد الناس، وهو لا يترك سؤالًا إلا ويجيب عنه؛ لأنه يقول: إنه من أُوتي علمًا يجب عليه أن يُظهِرَه، حتى لا يدخل في الوعيد الذي توعَّد الله ﷻ به كاتمَ العلم.

وهذا السؤال الذي جاء في هذه (الفتوى)، الحقيقة أنَّ فيه أخطاء!

أولًا: قوله: «**عن رجلَينِ اختلفا في الاعتقاد، فقال أحدُهما: من لا يعتقد أنَّ الله سبحانه في السماء...**» فيه إجمالٌ أنَّ الله في السماء؛ لأنه قد يقصد بالسماء: أن الله مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقِه، وهذا إذا قيل فهو كلامٌ صحيحٌ.

عن معاوية بن الحَكَم السُّلَميّ ﵁، قال: «كانت لِي جارِيةٌ تَرْعَى غنمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانِيَّةِ، فاطَّلَعْتُ ذاتَ يومٍ فإذا الذِّيبُ قد ذهب بِشاةٍ من غنَمِهَا، وأنا رجُلٌ من بنِي آدمَ، آسَفُ كما يأسَفُونَ، لكنِّي صكَكْتُهَا صَكَّةً، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ فعَظَّمَ ذلك عليَّ، قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ أفلا أُعْتِقُهَا؟ قالَ: «**ائْتِنِي بِها**» فأتَيْتُهُ بها، فقالَ لها: «**أيْنَ اللهُ؟**» قالتْ: في السَّماءِ، قالَ: «**منْ أنا؟**» قالت: أنتَ رسُولُ اللهِ، قال: «**أعْتِقْهَا، فإنَّها مُؤمِنةٌ**»[1].

سأل رسول الله ﷺ الجاريةَ، لينظر: هل هي تصلُحُ للعتق أم لا؟

لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، سألها النبيُّ ﷺ، فقال لها: «**أيْنَ اللهُ؟**» فقالت: «في السَّماءِ»، فجعل هذا هو الأساس في بيانِ عقيدتها، وسيأتي الكلام على هذا الحديث.

لكن بعض الناس قد يفهم أن «في» هذه للظرفية، فيكون هذا

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، في كتاب المساجد مواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧)، عن معاوية بن الحكم السلمي ﵁.

باطلًا، فالله ﷻ لا يحويه شيءٌ، ولا يحيط به شيءٌ، فهو المحيطُ بكلِّ شيءٍ، وهو العالي على كلِّ شيءٍ ﷻ، وسيأتي بيان ذلك.

ثانيًا: قول الآخر: «**إنَّ الله سبحانه لا ينحصر في مكانٍ**»: يعني: أنه سارٍ في كلِّ الخلق وفي كلِّ مكانٍ، وهذا كفرٌ بالله ﷻ؛ لأنه خلافُ النصوصِ، وخلافُ الفطرةِ، وخلافُ إجماعِ السَّلف الصالح أتباع الرسل.

ثالثًا: قوله: «**هما شافعيان**»، هذا خطأ، فالشافعيُّ والحنفيُّ والمالكيُّ، وغيرُ هؤلاء من السلف الصالح، عقيدتهم لا تختلف؛ فعقيدة الأئمة كلها سواءٌ، وإن اختلفت العبارات.

فأجاب الشيخ رضي الله عنه بالجواب الذي فيه الكفاية:

وقوله: «الحمد لله»:

حَمِدَ الله ﷻ أوَّلًا، وهذا هو الواجب في الابتداء، بأن يكون بحمد الله والثناء عليه، والثناء هو تكرير الحمد، وحمدُ الله يكون في ذكر أسمائه، وصفاته التي تدلُّ على عظمته، وإذا قال: الحمد لله، فـ (الحمد) هو الثناء على الفعل الاختياري الذي يفعله باختياره، وهذه جاء فيها (أل) حتى تشمل جميع المحامد، فجميع المحامد يستحقُّها ﷻ.

وقوله: «اعتقاد الشافعي رضي الله عنه...»:

أي: ما فيه مَيْزة لأن يكون اعتقادًا خاصًا به.

قال: «واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة، رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان...»:

اعتقاد هؤلاء كلِّهم هو ما كان عليه اعتقاد الصحابة، فالأمر مجمَعٌ عليه، ولا خلاف فيه.

وقوله: «وهو ما نَطَق به الكتابُ والسُّنَّة»:

عبَّر عن النطق، يعني: ما كان نصًّا من الكتاب والسنة، وهذا معنى قولهم: «إن أسماء الله وصفاته توقيفية»، يعني: نقف فيها على النصوص فقط، ولا نتجاوزها، فليست فهومًا، يفهمها فلان ولا يفهمها فلان، فلا يجوز أن يوصف الله ﷻ إلا بما وَصَفَ به نفسَه، كقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سبأ: ٢٣]، والنصوص في هذا الأمر كثيرة جدًّا؛ التي تدلُّ على العلوِّ لله ﷻ.

والسنة كذلك متَّفِقَة على هذا مع الكتاب، والرسول ﷺ يقول: «**رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ**»(١)، كذلك الحديث الذي سبق، قال ﷺ للجارية: «**أين الله**»، قالت: «في السَّماء»، قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٢).

وفي مناهِجِ السَّلف: إن كانت أقوالهم فيها اختلافٌ في اللفظ، فالمعنى واحدٌ لا يختلف؛ لأنَّ بعض الناس يريد أن يتبع شخصًا بعينه، فإذا قيل له: إنَّ هذه عقيدة فلان ـ الذي يعظِّمه ـ، فقد يستمع ويقبل، وإذا قيل: عقيدة فلان، قد يَنْبُو سمعُه ولا يَقبَلُ!.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، في كتاب الطب، باب كيف الرقى برقم (٣٨٩٢)، من حديث أبي الدرداء ؓ برقم (٣٨٩٢)، وأخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٢٣٩٥٧)، من حديث فضالة بن عبيد الأنصاري ؓ.

(٢) سبق تخريجه.

ﷺ قال الشافعيُّ رضي الله عنه في أول خطبة «الرسالة»: «الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسَه، وفوق ما يَصِفُ به خلقَه»[١]، فبيَّن رحمه الله أنَّ الله موصوفٌ بما وصف به نفسَه في كتابِه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

ﷺ وكذلك قال أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسَه أو وصفَه به رسولُه ﷺ، لا يتجاوز القرآنَ والحديثَ»[٢]، وكذلك مذهب سائرِهم أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، بل يثبتون له ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العليا، ويعلمون أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ﷺ فإنه كما أنَّ ذاته ليست كالذَّواتِ المخلوقة، فصفاتُه ليست كالصفات المخلوقة، بل هو ـ سبحانه ـ موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّهٌ عن كل عيبٍ ونقصٍ.

الشَّرح

أراد الشيخ رحمه الله أن يذكر قولَ الشافعيِّ؛ لأنَّ هذا السائل يقول: ـ إنَّ المختلفين ـ «**وهما شافعيان**».

---

(١) الرسالة للشافعي (١/٨).

(٢) ذم التأويل لابن قدامة (ص٢٢).

وقوله: «قال الشافعيُّ رضي الله عنه في أول خطبة «الرسالة»»:

يعني كتابه الذي يُسمَّى «الرسالة» وهو كتابٌ في أصول الفقه.

وقوله: «الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسَه...»:

يعني: أنه لا يَصِفُه الناسُ من عندهم.

والوصف هو النعتُ، ينْعتُه ويَصِفه حتى يعرف، والله جل جلاله تعرَّف إلى عباده بما وصف به نفسه، وما سمَّى به نفسه، كما أنه تعرَّف إليهم بأفعاله التي يفعلها؛ مثل المخلوقات، ومثل الحوادث التي تحدث كالرياح، والسحاب، والمطر، والإحياء، والإماتة، وما أشبه ذلك، وهذا شيء لا يختلف فيه الناس.

ولهذا، ذكر الله جل جلاله المشركين، أنهم إذا سُئلوا: من خلق السماوات والأرض؟ قالوا: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾، فإذا قيل لهم: من خلقكم؟ قالوا: خلقنا الله، فهو أمرٌ متَّفق عليه، لا يختلفون فيه، فليس هناك أحدٌ يقول: إن الصنم، أو إن فلانًا شارك الله في خلقِ شيءٍ من الأشياء.

حتى جاءت الفرق الضالة من هذه الأمة؛ فزعموا أن الإنسان يخلُقُ أفعالَه، وأنه لا دخل لأمر الله جل جلاله فيها!، وهذه عقائد مبنيَّة على الضلالِ؛ الضلالُ الذي جانَبَ الكتابَ والسُّنة؛ لأنه إذا لم يكن الإنسان مهتديًا بما يدلُّه على الحقِّ من كلام الله أو كلام رسوله فهو ضالٌّ تائهٌ؛ أي: ليس على الطريق المستقيم، فالضلال يوقِعُه إما في حُفَرٍ، وإما في محلٍّ مُهلِكٍ، فالنهاية الهلاك.

وتَبِعَ هؤلاءِ كفَّارًا سابقين، وهم الذين يقال لهم: (المجوس)؛ لأنهم يعتقدون أن المتصرِّف في الكون اثنان، أو إلهان: إله الظُّلْمة، وإله النور، ولهذا جعلوا النَّار معبودةً لهم، وصاروا يوقدونها دائمًا لا تُطفَأ،

وبئس المعبودُ؛ لأنَّ النار عندهم هي أصل النور، فهؤلاء سُمُّوا (المجوس)، ومجوس هذه الأمة، الذين جعلوا العبد يخلُق فِعلَه[(١)].

فلا خلاف في هذا بين الخلق، ولهذا جعله الله ﷻ أصلًا ودليلًا على وجوب عبادته، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] لا يختلفون في أنَّ الله خَلَقَهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: يعني: أنه خلق المخلوقات كلَّها.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾: لا يختلفون في أنَّ الله هو الذي خلق الأرض.

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾: حيث رفعها فوقهم، فهم يشاهدونها، لا منكِرَ لها.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: يعني: من العلو.

وقوله: ﴿مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾: أي: أخرج بالماء من الأرض ما تأكلون، وتأكله أنعامكم التي تتمتعون بها.

وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾: أي: تعلمون هذه الأشياء؛ أنَّ الله خالِقُهم، وخالقُ هذه الأشياء المشاهَدَة، فلا خلاف في هذا.

والأنداد: الشركاء في العبادة، فلا تجعلوا لله ندًّا في العبادة، والندُّ

---

(١) عن ابن عمرَ ﵄، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**القدريَّةُ مجوسُ هذه الأُمَّة: إنْ مرِضُوا فلا تعُودُوهُمْ، وإن ماتُوا فلا تَشهدُوهُم**» أخرجه أحمد في «المسند» (٥٥٨٤)، أبو داود في «سننه» (٤٦٩١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٣٨)، والفريابي في «القدر» (٢١٦).

قد يكون في العبادة، وقد يكون في الاعتقاد، وهما لا ينفكّان عن بعضهما؛ كلٌّ واحدٍ مرتبطٌ بالآخر.

وقوله: «وفوق ما يَصِفُ به خلقَه»:

كلمة «فوق» هنا تعني: أعلى وأكبر وأعظم، والخلق يصفونه بما يقولون هم، وهو يتعالى ويتقدَّس عن ذلك، فلما عجز الخلق عن وصفِه، وصفَ نفسَه؛ ومدَح نفسَه، وحَمِدَ نفسَه؛ لأن الخلق لا يستطيعون ذلك.

وقوله: «فبيَّن رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الله موصوفٌ بما وصف به نفسَه في كتابِه، وعلى لسان رسوله ﷺ»:

يعني: أنه لا يُتجاوز هذا في العموم، وذلك شاملٌ لجميع ما يجب لله ﷻ من الوصف والأسماء، والوصف قد يدخل فيه الفعل، والفعل قد يُسمَّى وصفًا.

وقوله: «وكذلك قال أحمدُ بنُ حنبلٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسَه أو وصفَه به رسولُه ﷺ، لا يتجاوز القرآنَ والحديثَ»»:

يعني: لا بد أن يكون الوصف مما قاله الله ﷻ، أو قاله الرسول ﷺ، وهكذا مذهبُ سائرِ الأئمَّة، يقولون هذا، ولا يختلفون فيه؛ أنهم يصفون الله بما وصفَ به نفسَه، وبما وصفَه به رسوله ﷺ.

وقوله: «وكذلك مذهب سائرِهم أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ»:

التحريف: مأخوذٌ من الحَرْفِ، أي: الجانب، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: ١١]؛ أي: على جانب معين، إن حصل له ذلك، وإلا رجع.

والتحريف يدخل فيه تحريفُ اللفظِ وتحريفُ المعنى[١]، وتحريف

(١) تهذيب اللغة (٥/ ١٢)، وتاج العروس (٢٣/ ١٣٥).

المعنى كثيرٌ جدًّا، بل هو الذي بسببه ضلَّ أكثر هذه الأمة، والذي يسمُّونه تأويلًا!، وإن كان **التأويل في اللغة يطلق على شيئين**:

أحدهما: ما تُؤوَّل إليه الأشياء وحقائقها: كما قال ﷺ لمَّا شاهدوا ما وُعِدُوا به، قالوا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، هذا تأويل ما أُخبِروا به، وقال عن يوسف عليه السلام، لما سجد له أبواه على شريعته، قال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ لأنه رأى أنَّ الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا سجدوا له، والسجود قد يكون انحناءً، وقد يكون سجودًا على الأرض، وذلك على شريعتهم كما ذُكِر، وإلا فشريعة الإسلام لا تبيح لأحد أن يسجد لأحد.

فتأول الشمسَ والقمرَ أنهم أبواه، والكواكب إخوتُه الأحدَ عشرَ، قال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، تأويله يعني الذي أخبر عنه عندما يُبعَثون من قبورِهم ويُوقَفون للحساب، ويُجزَوْن بعملِهم، هذا تأويلُ الأخبار التي جاءت عن هذا؛ يعني: إذا شاهدوها وعايشوها فهذا تأويلها.

الثاني: أنَّ التأويل يُطلَق على التفسير: وتفسير الألفاظ يعني بيانها وإيضاحها؛ لأن الكلام قد يُوضَّح بمرادفاتٍ له، أو بشيء أوضح مما عبر به، فيُسمَّى تأويلًا، كما يقول ابن جريرٍ رحمه الله في «تفسيره»: «القول في تأويل قول الله: كذا وكذا».

والمبتدعة جاءوا بمعنى ثالث ابتدعوه للتأويل، وهو صرف اللفظ عن ظاهره الذي يدلُّ عليه إلى معنى لا يدلُّ عليه إلا بدليلٍ، والدليل جعلوه العقل غالبًا، والعقل لا ضابطَ له؛ لأن العقول تختلف، فعقل أبي بكر رضي الله عنه ليس كعقل أبي جهلٍ، وهكذا.

نقول: ما جُعِلت العقول مرجعًا للحق، وإنما العقول يجب أن تُرشَدَ، ويجب أن يكون لها دليلٌ، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، قوله ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ يعني: أن الآيات تدلُّ العقل وتُرشِدُه، أما أن يكون العقلُ أصلًا، فلا، وربنا ﷻ غيبٌ ما اطَّلع عليه أحدٌ حتى يَصِفَه، وليس له نظيرٌ يُقاسُ عليه.

فلا بدَّ مِنَ الإخبار، بأن يُخبِر هو سبحانه عن نفسِه، أو يُخبِر من يأتيه الوحيُ من الله عن نفسه.

وقوله: «... ولا تعطيلٍ»:

التعطيل مأخوذٌ من العَطَلِ وهو الخُلُوُّ والفراغ[1]، كما قال ﷻ: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، يعني: مُعطَّلةٌ عن العمل، هَلَك أهلها فبقيت معطَّلةً، وكذلك القصر معطَّلٌ لا يسكنه ساكنٌ، ولا يستعمله أحد، ومن كلام العرب: «جِيدٌ عاطِلٌ»، والجِيدُ هو الرقبة، ويقال للمرأة إذا لم يكن في رقبتها حليٌّ وزينةٌ؛ أي: خالٍ من الزينة.

فالتعطيل معناه: تعطيل اللفظ عن المعنى الذي أراده المتكلم، فلا يجوز مثل هذا، يجب أن تكون الألفاظُ مرادًا بها شيءٌ معيَّنٌ أراده المتكلم، ويجب أن تبقى عليه وتُفهَم كما أراد، أما أنْ تُصرَف عن هذا المعنى فهو تعطيلٌ، وهذا قريبٌ من التحريف، وهو أنواع.

فالتعطيل قد يكون تعطيلَ اللهِ ﷻ من أوصافه، وقد يكون تعطيلَه

---

(١) منتخب من صحاح الجوهري (١/ ٣٤٤٦)، وتاج العروس (٣٠/ ١٠).

من أفعاله، وقد يكون تعطيل المخلوق من خالق، كما يفعله الفلاسفة والملاحدة، فهو أقسام متعدِّدة.

وقوله: «ومن غير تكييفٍ»:

التكييف هو: معرفة كيفية الشيء والحالة التي هو عليها، فهذا لا يمكن أن يُوصَل إليه، وليس معنى ذلك أنه لا كيفيةَ له، بل له كيفيةٌ، ولكنَّها كيفية مجهولة للخلق، لا يمكن الوصول إليها، ولهذا قال: «**ومن غير تكييفٍ**»، وهذا التكييف يكون للذات ويكون للصفات، فلا يجوز الدخول فيه؛ لأنه لا يمكن الوصول إليه.

وقوله: «ولا تمثيلٍ»:

يعني: التمثيل يقصد به أن يكون له مثلٌ وله نظيرٌ، سواءً في ذاته أو في أوصافه، وكثيرٌ ما يُعبَّر عن هذا بالتشبيه، ولكن التشبيه صار مجملًا يدخل فيه حقٌّ وباطِلٌ، فلهذا عَدَل عنه إلى التمثيل؛ لأن هذا منصوصٌ عليه في كتاب الله، في قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، هذا كلُّه نفيٌ أن يكون له مثيلٌ، تعالى الله وتقدَّس.

وقوله: «ولا تمثيلٍ، بل يثبتون له ما أثبته لنفسه...»:

يعني: وهذا أمرٌ حتمٌ لا بد منه، وإلا يكون الإنسان ضالًّا ومُتَعَدّيًا ما جُعل له.

فيثبتون لله ﷻ ما أثْبَتَه لنفسِه مِنَ الأسماء الحسنى، وأسماؤه كلُّها حسنى، والحسنى هي التي كمُلت في معناها، وفي لفظها، ولا يتطرَّق إليها نقصٌ ولا عيبٌ، فإذا دخل على الاسم نقصٌ أو عيبٌ من جانبٍ من الجوانب، فلا يدخل في أسماء الله ﷻ؛ لأنَّ أسماء الله كلها حسنى.

وقوله: «والصفات العليا»:

العليا يعني: الرفيعة العظيمة، ثُمَّ هذا معناه أن فيه أسماء وفيه صفات، يعني: فيه فرقٌ بين الأسماء والصفات.

فالاسم: هو ما دلَّك على المسمى.

والصفة: هي المعنى الذي يقوم بالموصوف، والأصل هو الصفة، والأسماء أُخِذتْ مِنَ الصفات.

على سبيل المثال: «الله» اسمٌ كريمٌ عظيم، والألوهية صفةٌ له، فهو يُؤَلَه؛ لأنه هو إله الخلق كلِّهم، و«الرحمن» اسم، والرحمة صفته، فالله أُخِذَ مِنَ التألُّه.

وهذا من الاشتقاق، والاشتقاق معناه: أَخْذ كلمة من أخرى مع تناسبٍ بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ، والمشتق: ما أُخِذ من غيره؛ نحو: عَالِمٌ، مَعلُومٌ، علَّامٌ، مأخوذة من العِلْم.

والاسم إمَّا أن يكون مشتقًّا وإما أن يكون جامدًا.

وأسماء الله لا تكون جامدة.

مثل: عبد الله وعبد الرحمن، محمد، هكذا هذه أسماء جامدة؛ لأنها جعلت للتميز ليتميز هذا عن هذا فقط، وإلا كلهم عبيد لله.

أما أسماء الله على خلاف هذا؛ أسماء الله لها معانٍ عظيمة أخذت منها، فلهذا قيل إنها مشتقة.

وقوله: «ويعلمون أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ **لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله»:**

قوله تعالى: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ جاء هنا بالكاف للتأكيد وزيادة المعنى، كما

قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وأكثر المفسرين يقولون: «الكاف هذه زائدة»(١)، ولكن كلام الله ليس فيه زائد، كلام الله كلُّه حقٌّ ولا يكون فيه شيء لا معنى له، فهي قد جِيء بها للتأكيد.

وقوله: «لا في ذاته»:

هذا أمر متفق عليه بين الخلق كلِّهم، كلُّهم يتَّفقون على أنَّ الله في ذاته ليس كمثله شيء تعالى وتقدَّس، ولكن الخلاف صار في الصفات وفي الأسماء، وفي الأفعال، والذات هي التي توصف.

وقوله: «ولا صفاته»:

صفات الله لا تكون كصفات الخلق، وقد تتشابه الألفاظ، كوصف بعض خلقه بأنه «العزيز»، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، ـ وأيضًا ـ وصف بعض خلقه بأنه «حليم»، كما قال ﷻ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، وكذلك وصف نبينا ﷺ بأنه «رؤوف رحيم» كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، ووصف نفسه ﷻ بالمحبة، ووصف عباده بالمحبة، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ووصف نفسه ﷻ بالرضا، ووصف عباده بالرضا، فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ونظائر هذا كثيرة. ولكن إذا وُصِف

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٤٢): «وحكي عن جماعة من أهل النظر قالوا: ويحتمل أن تكون الكاف في قوله: «ليس كمثله شيء» زائدة». وانظر: تفسير السمعاني (٥/ ٦٦)، الهداية الى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٥٦٥).

المخلوق بهذا فهو يليق به، ويليق بضعفه وبكونه مخلوقًا، وإذا وُصِف به ربُّ العالمين فهو يليق بعظمته، فإذًا التميُّز هنا عند الإضافة والتخصيص، إذا وجدت الإضافة زال الاشتراك نهائيًا، ما فيه اشتراك لا في لفظه ولا في معناه.

وقوله: «ولا في أفعاله»:

يعني: أفعاله ﷻ تخصُّه مثل: الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وكذلك الأفعال التي لا تتعدَّى؛ لأن **أفعال الله قسمان:**

القسم الأول: فعلٌ متعدٍّ؛ كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [يونس: ٣].

القسم الثاني: فعلٌ لازِمٌ؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء، وما أشبه ذلك، كلُّها خصائص تخصُّه ﷻ.

وقوله: «فإنه كما أنَّ ذاته ليست كالذَّواتِ المخلوقة...»:

أي: الضعيفة التي وجدت من العدم، وربُّنا ﷻ لا يجوز عليه العدمُ، فهو أوَّلٌ بلا بدايةٍ، لا مبدأ لله تعالى، كما أنه آخر بلا نهاية لا منتهى له، فهو الحيُّ القيومُ، الحياة الكاملة والقيوميَّة الكاملة له.

قوله: «فصفاتُه ليست كالصفات المخلوقة..»:

يعني: صفاته، فصفاته ﷻ تخصُّه ويختلف بها عن غيره، فهذا الأصلُ لو طبَّقَه الناس ما وُجِدَ خلافٌ، ولكنهم لم يطبقوه، فجعلوا أوصافَ الله تشترك مع أوصاف خلقِه، وأفعالَه كذلك، فضلُّوا في هذا!.

فلهذا نقول: هذه قاعدةٌ يجب أن نفهمَها ونترسَّمَها ولا نتعدَّاها، كونه ﷻ ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته ولا في أسماءه ولا في صفاته ولا

في أفعاله، ولا في حقِّه، وحقه ﷻ على العباد لا يجوز أن يكون للمخلوق شيء منه، فهو خاصٌّ به ـ وهو العبادة ـ.

فهذه أمورٌ يجب أن تَخْلُصَ لله وحدَه، ولا يكون للخلق فيها نصيبٌ.

وقوله: «بل هو ـ سبحانه ـ موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّهٌ عن كل عيبٍ ونقصٍ»:

النقص والعيب الذي نُفِي في كونه أسماؤه حسنى وصفاته عليا، نُفِي عنها النقصُ والعيبُ، فلا نقصَ فيها ولا عيبَ.

إذًا، الأصل أنه كامِلٌ في ذاته، كاملٌ في أوصافِه، وكاملٌ في أسمائه، وكاملٌ في أفعاله، وكذلك حقُّه الذي على خلقِه يجب أن يكون له وحدَه، ما يكون لأحدٍ فيه شيء، وإلا فقد خُلقت النَّار لمن خالف هذا، وهذا أمرٌ حتمٌ لا بدَّ منه.



﴿ «وهو ﷻ في صفات الكمال لا يماثله شيءٌ، فهو حيٌّ قيومٌ سميعٌ بصيرٌ عليمٌ قديرٌ رءوفٌ رحيمٌ، وهو الذي خلق السماواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وهو الذي كلَّم موسى تكليمًا، وتجلَّى للجبل فجعله دكًّا، ولا يماثِلُه شيء من الأشياء في شيء من صفاتِه، فليس كعلمِه علمُ أحدٍ، ولا كقدرتِه قدرةُ أحدٍ، ولا كرحمتِه رحمةُ أحدٍ، ولا كاستوائه استواءُ أحدٍ، ولا كسمعِه وبصره سمع أحدٍ ولا بصر أحدٍ، ولا كتكليمِه تكليمُ أحدٍ، ولا كتجلِّيه تجلِّي أحدٍ، والله ﷻ قد أخبرنا أن في الجنة لحمًا ولبنًا وعسلًا وماءً وحريرًا وذهبًا، وقد قال ابن عباس ﵄: «ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء»[1]، فإذا كانت المخلوقات الغائبة ليست مثل هذه المخلوقات المشاهَدَة مع اتفاقهما في الأسماء، فالخالق أعظم علوًّا ومباينةً لخلقِه من مباينة المخلوق للمخلوق، وإن اتفقت الأسماء».

الشَّرح

وقوله: «وهو ﷻ في صفات الكمال لا يماثله شيءٌ...»:

يعني: من صفاته الكمالُ، فكلُّ صفاته كمالٌ ـ كما سبق ـ، فله الكمال المطلَق، وهذا أصلٌ يجب أن يَثبَّت في قلب المؤمن؛ أن صفات الله كلها كاملةٌ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» برقم (٣٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩٢)، أبو نعيم الأصبهاني في «صفة الجنة»، وابن عساكر في «معجمه» برقم (١١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» برقم (١/ ٦٦).

والكامل هو الذي لا يتطرَّق إليه نقصٌ ولا عيبٌ بوجهٍ من الوجوه، أما المخلوق فلا يمكن أن يكون هكذا، فالمخلوق ناقصٌ من جميع الجهات، وفيه عيوبٌ كثيرةٌ جدًّا.

إذا عَرَفْنا هذا، وجاء الاشتراك بين أسماء وصفات الله وللمخلوق تميَّز بأن الله له الكمال، والمخلوق له النقص والعيب، فلا بدَّ أن عيوبه ونقصه ظاهرٌ بيِّنٌ جليٌّ.

وقوله: «فهو حيٌّ قيومٌ...»:

حيٌّ له الحياة الكاملة التي تستلزم العلم، والسمع، والبصر، والقوة، والقدرة، وغير ذلك، فكلُّ صفاتِ الذات ترجِعُ إلى اسم الله «الحيّ»، أما المخلوق فيموت، وكان عدمًا ثم أُوجِد ثم يموتُ، فليس هو حيٌّ في الواقع.

و«القيوم» كذلك، والقيوم الذي قام بنفسه واستغنى بنفسه، وكل شيء لا يقوم إلا به، وهو القائم على المخلوقات كلِّها بما يلزمها من الوجود ومن الحياةِ والبقاء، وإذا لم يُقِمْها هلكتْ وذهبتْ، فأسماء الأفعال، والأسماء المتعدية كلُّها ترجع إلى القيوم، فلهذا قالوا: «إنَّ الآية التي اشتملت على هذين الاسمين «الحي القيوم» فيها الاسم الأعظم».

وأسماء الله كلها عظيمةٌ، ولكن بعضها أعظم من بعضٍ، تكون لها خصائص عن غيرها، فلها معانٍ عظيمةٌ، وبعضها جامعٌ يُجمَع معها شيءٌ كثيرٌ جدًّا مثل هذه، هذه جوامع.

وقوله: «سميعٌ بصيرٌ»:

السمع والبصر لازمان للحي والقيوم، يلزم للحيِّ أن يكون سميعًا بصيرًا، وكذلك «**عليمٌ قديرٌ رءوفٌ رحيمٌ**»، وغير ذلك من الأسماء، فهذا

تمثيلٌ لأسماء الله ﷻ، وإلا أسماء الله لا حصرَ لها، وإنما عَلِمنا شيئًا منها في كتاب الله ﷻ، وفي أحاديث رسوله كما قال المصطفى ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[١]، يعني: لأجل هذا الحكم.

وقوله: «وهو الذي خلق السماواتِ والأرضَ وما بينهما...»:

يعني: كانت الأرض والسماء عدمًا لا وجود لها، فخلقهما بعد العدم، فيقول للشيء: «كن» فيكون، ما يحتاج إلى أنه يعمل أعمالًا بيدِه ولا غير ذلك، وإنما قوله للشيء: «كن»، إذا أراد الشيء وجِد، إذا أراده، مجرد الإرادة، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]، والسماء كذلك خلَقَها في يومَين، ثُمَّ الأرض في أربعة أيام، جعل فيها أقواتها وجعل فيها راسياتها، وأخرج منها ماءها وغير ذلك، وأنبت شجرَها وغيرها، فكلُّها قال لها: «كوني» فكانت؛ حيث قال لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: «وما بينهما»: الذي بين السماء والأرض؛ من مخلوقاتٍ وكواكب، وشمس وقمر، وما لا نعلمه من ملائكة الله وغير ذلك،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحد برقم (٧٣٩٢)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها برقم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبينهما فضاءٌ وبُعدٌ عظيمٌ مسيرة خمسمائة عام، ومن السماء الدنيا إلى السماء الثانية كذلك، ومن الثانية إلى الثالثة كذلك، ومن الثالثة إلى الرابعة كذلك، ومن الرابعة إلى الخامسة كذلك، ومن الخامسة إلى السادسة كذلك، ومن السادسة إلى السابعة كذلك، ثم فوق السماء السابعة بمسيرة خمسمائة عام بحرٌ عظيمٌ أكبرُ مِنَ السماء والأرض، ثم فوق هذا البحر عرشُ الرحمن، فالكرسي غير العرش كما هو معلومٌ، قال ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ، العرش أكبرُ من الكرسي بمرات كثيرة جدًّا، يروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»[١]، وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**ما الكرسيُّ في العرش إلا كحَلَقَةٍ من حديدٍ أُلقِيتْ بين ظَهرَيْ فلَاةٍ من الأرضِ**»[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**»[٣].

يعني: أن السماوات كسبعة دراهم ألقيت في أرضٍ فلاة؛ صحراء واسعة، والكرسي بالنسبة للعرش كدرهمٍ ألقي في أرض فلاة، فإذًا أكبر المخلوقات وأعظمها العرشُ.

وقبل الآن، كان بعض الناس يعتقد أن الأرض سطحيةٌ، والآن

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» برقم (١٠٩٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٣٩)، ورواه ابن أبي شيبة في كتابه «العرش» (٤٣٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٩٩).

تبيَّن أنها كرويةٌ، وأنها شبه البيضة في قلب السماء، والسماء تبعد عنها من جميع الجهات مسيرة خمسمائة عام، ولكن الجهات الحقيقية جهتان فقط (الفوق والتحت)، أما اليمين والشمال ليس حقيقيًّا، هذا إضافيٌّ فقط، فيمينك يكون شمالًا لغيرك، وشمالُك يكون يمينًا لغيرك، وخلفك يكون أمامًا لغيرك وهكذا، فإذًا الجهات الحقيقية (فوقٌ وتحتٌ) فقط، فالتَّحت والفوق للسماء، فالسماء محيطةٌ بالأرض من جميع الجهات.

والآن كما هو معلوم، يستطيع الإنسان إذا أراد السفر إلى أمريكا، أن يسافر من جهة الشرق، وقد يسافر من جهة الغرب، من هنا أو من هنا، فكذلك الجوانب الأخرى، فالأرض الآن معلومةٌ كلُّها، اطُّلِعَ عليها وليس فيها شيء خفيٌّ، وجاءت الصناعات والمخترعات والأقمار الصناعية الآن يكتشفون بها كل شيء في الأرض، ولا يخفى منها شيء.

أما الذي بين السماء والأرض ما استطاعوا أن يصلوا إلى شيء منه؛ لأنَّ المسير شاسعٌ جدًّا، تذهب الأعمار ولا يستطيع أحد أن يرقى إلى السماء، وإذا أراد الله ﷻ شيئًا يصل بسرعة، بالرغم من هذه المسافة العظيمة التي هي بين العرش وبين الأرض، كما أن رسولنا ﷺ عُرِج به في ليلة واحدة، سار من الأرض من بيت المقدس إلى السماء السابعة، ثم إلى فوق السماء السابعة، ثم رَجَعَ في ليلةٍ واحدةٍ.

وكذلك الروح إذا قُبضتْ، فإنه يُصعَد بها إلى السماء إذا كانت صالحة، أما إذا كانت فاسدةً فإنها تُغلَق دونها أبوابُ السماء ولا تدخل، وتُلقَى في مكان سحيقٍ.

إذًا العالم كله كرويٌّ مستدير، أحاطت السماء الدنيا بالأرض، والسماء الثانية أحاطت بالسماء الدنيا والأرض، وهكذا فسبحان الله الذي أتقن كل شيء.

وأوسع السماوات وأكبرها وأعظمها السابعة؛ لأنها أحاطت بكلِّ المخلوقات التي تحتها، أما العرش فليس كُرويًا؛ لأن الله ﷻ أخبرنا: أن له قوائم وحَمَلة، فهو عظيمٌ جدًّا وواسعٌ جدًّا، وليس فوق العرش إلا ربُّ العالمين، وهذا الخلقُ من أفعال الله، كلُّ هذه الأشياء قال لها: «كوني» فكانت، ولكن هل قبل هذه المخلوقات شيء؟!

الله ﷻ لم يزل يفعل ما يشاء، فهو فعَّالٌ لما يريد، ولا يلزم أن نعرِفَ شيئًا، نحن نعرف الشيء الذي أخبرنا به، وبعد ذلك يجِبُ أن نقِفَ ونقول: الله أعلم، ولكن يجب أن نعلم أنَّ الله ما كان معطَّلًا عن الفعل، بمعنى أنه لم يستطع أن يفعل شيئًا، ثم صار يفعله بعد عدم الاستطاعة، كما يقوله أكثر المتكلمين!، وهذا ضلالٌ ونقصٌ، فالله له الكمال المطلَق، وهو الفعال لما يريد، إذا أراد أن يفعل شيئًا فعَلَه، ولا أحدَ يَحُولُ بينه وبين ذلك.

وقوله: «وما بينهما في ستة أيام»:

وفي علم الله وحده حقيقة هذه الأيام؛ لأن ذلك قبل وجود الشمس والقمر، والله أعلم هل هي تقديرٌ لأجرام أخرى لا نعرفه أم ماذا؟ المهم أنها على ما يُفهم من الظاهر أنها بقدر هذه الأيام المعروفة لنا، في ستة أيام.

وقوله: «ثم استوى على العرش»:

الاستواء هو الاستقرار على الشيء والعلو عليه، والارتفاع عليه، فهو ارتفع على العرش من غير حاجةٍ إليه، وإنما لحكمةٍ أرادها ﷻ، وليس استواؤه كاستواء المخلوق على الشيء، فالمخلوق إذا استوى على السطح وسقط السطحُ يسقطُ معه، أما ربنا ﷻ فهو الذي يُمسِكُ بالعرش بقدرته وقوّته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله: «وهو الذي كلَّم موسى تكليمًا...»:

تكليمًا: يعني كلامًا حقيقةً، بالحرف والصوت، سمعه موسى وفَهِمَه، وهو سبحانه على عرشه وموسى ﵇ في الأرض، وذلك لما رأى ﵇ النارَ في الشجرة ذهب، فكلَّمه الله هناك.

وقوله: «وتجلَّى للجبل فجعله دكًّا»:

تجلَّى يعني: ظهَر، ولكن ليس التجلِّيَ الكامل، وإنما شيء يسيرٌ تجلَّى له، فتدكْدَكَ الجبل؛ لأنه جعل ذلك آية، حينما سأل موسى الرؤية: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، يعني: لا تستطيع، ولا تقوم لذلك، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾، اندكَّ وزال، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣] بأنه لا تُستطاع رؤيتك في هذه الدنيا، ولا أحدٌ يقوم لها.

ولهذا يقول المصطفى ﷺ: **«حِجابُهُ النُّورُ لو كَشَفَهُ لأحرَقَ سُبُحاتُ وَجهِهِ ما انتَهَى إليهِ بَصرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**[1]، و(سُبُحات) تعني البهاء والجمال، فما أحد يقوم من خلقه يقوى لذلك، فإذا كان يوم القيامة، ورُكِّبَ المؤمنون تركيبًا غيرَ هذا، استطاعوا أن ينظروا إلى ربهم ﷻ، أما في هذه الدنيا فلا يمكن لأحد ذلك، فالله سبحانه يُرى في الآخرة، ولا يُرى في الدنيا.

وقوله: «ولا يماثِلُه شيء من الأشياء في شيء من صفاتِه...»:

هذا تأكيدٌ لقوله: «بل هو ـ سبحانه ـ موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّهٌ عن كل عيبٍ ونقصٍ».

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان، باب في قوله ﵇: **«نور أنى أراه»** (١٧٩)، من حديث أبي موسى ﵁.

وقوله: «فليس كعلمِه علمُ أحدٍ»:

علمه كاملٌ، ولم يستفِدْ شيئًا من العلم بعد وجود الأشياء، فعلمه كامل لا يحتاج إلى تكميل ولا زيادة، بخلاف المخلوق خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فيحتاج إلى التعلم شيئًا فشيئًا؛ لأنه ضعيف وناقص، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، أما علم الله فهو كامل تام، ولهذا كتب علمه بالأشياء قبل وجودها، فهي تقع على حسب علمه بلا زيادة ولا نقص، في وقت محدَّد حدَّده الله ﷻ بعلمه.

وقوله: «ولا كقدرتِه قدرةُ أحدٍ»:

فهو القدير على كل شيء، ولا يُعجِزُه شيء، أما المخلوق فهو ضعيف.

وقوله: «ولا كرحمتِه رحمةُ أحدٍ، ولا كاستوائه استواءُ أحدٍ، ولا كسمعِه وبصرِه سمعُ أحدٍ ولا بصر أحدٍ...»:

نقول: إن له الكمال المطلق في جميع أسمائه وصفاته ـ كما مضى ـ، ولكن عند الشرح والبيان المفرد قد يثبت الشيء ويعلم.

وقوله: «والله ﷻ قد أخبرنا أن في الجنة لحمًا ولبنًا وعسلًا وماءً وحريرًا وذهبًا...»:

نقول: إنَّ هذا مجرَّد مثالٍ فقط للرَّدِّ. فيقول: إن المخلوقات تتفاوت، فإذا كانت المخلوقات تتفاوت، ويصير فيها شيء لا نعلمه ولا ندركه؛ لأننا ما شاهدناه ولا رأيناه؛ يعني: الذي في الجنة مثل أنهار اللبن وأنهار العسل، فنحن لا نعرف إلا اللبن الذي يخرج من الضروع؛ لهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«ليس في الدنيا مما في الجنَّة إلا الأسماء»**[1]،

---

(١) سبق تخريجه.

الأسماء فقط، هذه الأسماء التي تعرفون بها المُخبَر عنه، أما حقيقتها فهي مجهولة حتى تصل إليها وتعيش فيها فتعرفها، قبل هذا لا، وهذا تأويل الأشياء التي تُذكر ويُخبر بها، فإذا كان هذا التفاوت العظيم بين المخلوقات، كيف يمكن أنه يقاس الخالقُ ﷻ بالمخلوق، هذا ضلالٌ، فالله ﷻ ليس كمثله شيءٌ من الأشياء، لكن هذا جعله مثالًا فقط.

قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]، ويقول ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [محمد: ١٥]، وقال ﷻ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: ٤١ ـ ٤٤]، ويقول ﷻ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ٤٠]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: قال اللهُ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**»[1] والآيات والأحاديث في هذا كثيرة.

* * *

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة برقم (٣٢٤٤)، ومسلم في «صحيحه»، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم (٢٨٢٤).

۞ «وقد سمَّى نفسه حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا مَلكًا رءوفًا رحيمًا، وسمَّى - أيضًا - بعضَ مخلوقاته حيًّا، وبعضها عليمًا، وبعضها سميعًا بصيرًا، وبعضها رءوفًا رحيمًا.

۞ وليس الحيُّ كالحيِّ، ولا العليم كالعليم، ولا السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير، ولا الرءوف كالرءوف، ولا الرحيم كالرحيم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١﴾ [الصافات: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، وهو - سبحانه تعالى - قد قال في كتابه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

۞ وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: أنه قال للجارية: «**أين الله؟**»، قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**»، قالت: أنت

رسول الله، قال: «**أعتِقْها فإنها مؤمنة**»[١]، وهذا الحديث رواه مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ومسلم في «صحيحه»، وغيرهم.

الشَّرْح

قوله: «وقد سمَّى نفسه حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا مَلكًا رءوفًا رحيمًا، وسمَّى ـ أيضًا ـ بعضَ مخلوقاته حيًّا، وبعضها عليمًا..»:

ببعض هذه الأسماء، فالمسمَّى غير المسمى، والاسم غير الاسم، ولكن لو كنا نجهلُ السمع والبصر، ما أمكننا أن نعرِفَ حقيقة اسم الله «السميع والبصير».

فنعرف أنَّ السمع هو إدراك الأصوات، وإدراكُ الأصوات بالنسبة للمخلوق محدودٌ، بحيث يدرِكُ الشيء الذي حوله، والبعيد لا يدركه.

أما سمعُ الله سبحانه: فهو كاملٌ لا يفوتُه شيءٌ، حتى الذرة التي تَدِبُّ على الأرض، يسمع دبيبها في ظُلْمَة الليل على الصخرة الصماء[٢]، فله سبحانه السمع الكامل، وهكذا البصر.

أنت عندك بصرٌ، لكنه محدودٌ، تبصر ما حولك وما هو قريب منك، فإذا كان عندك آلة تنظر فيها يمكن أن يتمادى بصرُك شيئًا ما.

أما بصر الله سبحانه: فلا يفوته شيء في السماوات ولا في الأرض، يُبصِر كل شيء، الذي في قلب البحار والذي في قلب الأرض وغير ذلك، فلا يفوته شيء، فله الكمال المطلق، وهكذا يقال في صفاته وأسمائه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) إشارة إلى ما رواه أحمد (١٩٦٠٦) وغيره: قال ﷺ: «**أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا هذا الشِّركَ؛ فإنَّهُ أخْفَى من دبيبِ النَّملِ**». فقال لهُ: من شاءَ اللهُ أنْ يقولَ وكيف نتَّقِيهِ، وهو أخفَى من دَبِيبِ النَّملِ يا رسولَ اللهِ؟ قال: **قولُوا**: «**اللهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بك من أنْ نُشرِكَ بكَ شَيئًا نَعلَمُهُ، ونَسْتَغفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**» من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

إذًا هذا هو الاتفاق بين المسميات التي لله وللمخلوق، وإذا جاءت الإضافة، وأضيف هذا لله، تميز بالكمال المطلق، وإذا أضيف للمخلوق فهو يليق بمحدوديته وضعفه ونقصه، فلا إشكالَ في هذا، وهذا هو المقصود من كلامه؛ ولهذا ذكر عددًا من الأسماء التي اشترك فيها المخلوق مع ربنا الخالق ﷻ من حيث اللفظ، ولهذا قال: «**وليس الحيُّ كالحيِّ، ولا العليم كالعليم، ولا السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير، ولا الرءوف كالرءوف، ولا الرحيم كالرحيم**» إذا أضيفت إلى الله، فهي خاصة به لا يشاركه فيها أحد، وإذا أضيفت للمخلوق فهي تليق بضعفه وحاجته، وكونه خلقًا، ولهذا بعض الناس يكون سمعه ضعيفًا، وبصره ضعيفًا، وبعضهم يكون أكمل منه على نقص فيه أيضًا.

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

هذا استدلالٌ على علوِّ الله ﷻ، وقد مضى أنه سبحانه ذكر أنه مستوٍ على عرشِه، والاستواء من أدلَّة العلوِّ.

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

يعني: كيف تعصونه؟!

وكيف تخالفون أمره؟!

أمَا تخافون أنه يخسف بكم الأرض، كما خسف بمن قبلكم؛ مثل قارون ونحوه.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ

أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٢]، وقال ﷻ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠].

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: إما أن تكون بمعنى (على)، كما قال ﷻ في قصة فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] أي: فوق الأرض.

أو أن يكون المعنى المقصود بالسماء: العلو، أي: أأمنتم من في العلو؟، وليست السماء المبنية، قال الرسول ﷺ: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ**»[(١)]، وليس معنى السماء أن تكون ظرفًا لله تعالى وتقدس.

فإما أن نقول: (في) بمعنى (على)، أو أن نقول: السماء بمعنى العلو، والثاني أَوْلَى، وأن تكون السماء معناها العلو.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾:

الحاصب الحجارة التي يرمى بها أو الحديد أو النحاس أو ما شاء الله، فكيف يأمن الإنسان ربه وهو يبارزه بالمعاصي، والله يشاهده، وهو ﷻ على كل شيء قدير، إذا أراد أن يهلكه أهلكه بأدنى سبب.

وقوله: «وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: أنه قال للجارية: «أين الله؟»...»:

كما سبق؛ ذكر القصة التي في «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم السُّلميّ رضي الله عنه، قال: «كانت لِي جارِيةٌ تَرْعَى غنمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانِيَّةِ، فاطَّلَعْتُ ذاتَ يوم فإذا الذِّيبُ قد ذهب بِشاةٍ من غنمِهَا، وأنا رجُلٌ من بنِي آدمَ، آسَفُ كما يأْسَفُونَ، لكنِّي صككْتُهَا صَكَّةً، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ فعظَّمَ ذلك عليَّ، قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ أفلا أُعْتِقُهَا؟ قالَ: «**ائْتِنِي بِها**» فأتَيْتُهُ بها، فقال لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالتْ: في السَّماءِ، قالَ: «**منْ أَنَا؟**» قالت: أنتَ رسُولُ اللهِ، قال: «**أعتِقْهَا، فإنَّها مُؤمِنةٌ**»[١] وهذا يدُلُّ على أمورٍ:

الأمر الاول: أن الإيمان في العتق، غير الإيمان الذي قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥]، وأن العتق يكفي فيه الظاهر، ظاهرُ كونِه يعلمُ أنَّ الله فوق، وأن الله هو الربُّ الذي يجب أن يُعبَد، وأن محمدًا رسول الله، وأما الأمور الأخرى ليست لازمة، فالإيمان في العتق غير الإيمان الواجب على الإنسان.

---

(١) سبق تخريجه.

الأمر الثاني: أن هذا مشروعٌ لنا أن نقول: «**أيْنَ الله؟**»، والمتكلمون من الجهمية وغيرهم يعيبون أهل السنة ويسمونهم (الأينية)؛ لأنهم يسألون: «**أيْنَ الله؟**، **وأهل السنة إمامهم رسول الله ﷺ، هو الذي قال هذا، وهم يقتدون به، فهل يعاب هذا الاقتداء**»؟!

الأمر الثالث: أنَّ عقيدة عُلُوِّ الله ﷻ يجب أن تكون ثابتةً من أول شيء؛ لأن العبادة التي يتَّجه بها الإنسان إلى ربه، يجب أن يكون قلبه قاصدًا ربه من العلو، دائمًا في كل وقتٍ وآنٍ، فهذا أصل عظيم يجب أن نتفطَّنَ له ونعرِفَه، فإذا سجد يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، وقلبه يذهب إلى فوق العرش، (كأنه) يشاهد ربه، ويسجد له هناك، ودائمًا يكون هذا الشعور، ثم إن هذا أصل من أصول الإيمان بأسماء الله وصفاته.

الأمر الرابع: يدلُّ على أن كتاب الله ﷻ وسنَّة رسولِه ﷺ تتفق في هذا الأمر بلا خلافٍ يذكر.

الأمر الخامس: يدلُّ على أنه إذا جاءنا نصٌّ عن النبي ﷺ يجب أن نؤمن به ونعتقده، سواءٌ كان في الأصول أو في الفروع، ولا فرقَ بين كونِه في العقائد الأصول أو في الفروع، فإذا ثبت الشيء وجب العمل به، وإنما الذي أضلَّ أهلَ البدعِ أنهم فرَّقوا بين الاثنين.

* * *



ﷺ «لكنْ، ليس معنى ذلك: أنَّ الله في جوف السماء، وأنَّ السماوات تحصُره وتحْوِيه، فإن هذا لم يقُلْهُ أحدٌ من سلف الأمة وأئمَّتها، بل هم متَّفِقون على أن الله فوق سماواته على عرشِه بائنٌ من خلقه، ليس في مخلوقاته شيءٌ من ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ من مخلوقاته، وقد قال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الله في السماء، وعلمَه في كلِّ مكان»[١].

ﷺ وقالوا لعبد الله بن المبارك: «بماذا نعرفُ ربَّنا؟ قال: بأنه فوق سماواته على عرشِه بائنٌ من خلقه»[٢].

ﷺ وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ كما قال هذا، وهذا.

ﷺ وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «خلافةُ أبي بكرٍ حقٌّ قضاها الله في سمائه، وجمع عليها قلوبَ أوليائه»[٣].

ﷺ وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «كنَّا والتابعون متوافرون نُقِرَّ بأن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُنَّة من صفاته»[٤].

ﷺ فمن اعتقد أن الله في جوف السماء محصورٌ محاطٌ به، أو أنه مفتقِرٌ إلى العرش أو غير العرش من المخلوقات، أو أنَّ استواءه على عرشِه كاستواء المخلوق على كرسِيِّه، فهو ضالٌ مبتدعٌ جاهلٌ».

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١/ ١٠٧).

(٢) مسائل حرب الكرماني (٣/ ١١١٢).

(٣) إثبات صفة العلو لابن قدامة (ص١٨١).

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٠٤).

الشَرح

وقوله: «لكنْ، ليس معنى ذلك: أنَّ الله في جوف السماء، وأنَّ السماوات تحصُرُه وتحْوِيه، فإن هذا لم يقُلْهُ أحدٌ من سلف الأمة...»:

سبق أن العقيدة لا تؤخذ عن أحدٍ من الناس، لا فهْمِه ولا قولِه، ولا يقلد في ذلك أحدٌ، وإنما تؤخذ من كتابِ الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

ويُستعان بأقوال الأئمة على الفهم، فالأئمة لا يخالفون ما في كتاب الله وما في سُنَّة رسوله ﷺ، بل يقولون ما قاله، ولكنهم ينفون الأمور الباطلة التي قد يفهمها بعض الناس، وينفون عقيدة (إن الله ﷻ في كلِّ مكانٍ)، فهذه موجودةٌ في كثيرٍ من الناس ولكنها ضلالٌ، فتوجد في الصوفية وتوجد في الأشعرية، وتوجد في أصحاب الكلام.

وأصحاب هذا الافتراء لا يعتقدون أنَّ الله فوق؛ لأنهم يقولون: إذا قلنا أنه فوقٌ صار في جهةٍ محصورة، وهو لا يحصُرُه جهةٌ، ودليلهم على أن الله في كل مكان أن الله ﷻ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

ومعنى الآية أن الله سبحانه مألوهٌ في السماء ومعبودٌ، ومألوهٌ في الأرض ومعبودٌ، وليس المعنى أنه في الأرض وفي السماء وجودُه بذاته ـ تعالى وتقدس ـ.

فكلام الله لا يختلف، وبعضُه يوافِقُ بعضَه، كما أن كلام رسول الله ﷺ كذلك.

ونقول: إنَّ الذي يقول: إنَّ السماء تحصُرُه، أو تحوِيه، فإنَّ هذا لم يعرِفْ قدْرَ الله، ولم يعرِفْ عظَمَةَ الله، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، فالسماوات كلُّها على

سَعَتها يطويها وتكون صغيرةً في كفِّه ﷻ، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ما السَّماواتُ السَّبعُ والأرَضُونَ السَّبعُ وما فِيهِما في يَدِ اللهِ ﷻ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ في يَدِ أحدِكُمْ»[1]، ولله المثل الأعلى، تعالى الله وتقدَّس.

فإثبات الصفات التي وصفها الله ﷻ من كونه عاليًا على كلِّ شيء، هذا أصلٌ عظيمٌ يجب أن يكون مستقرًّا في القلب، وإلا كيف الذي يقول: (في كل مكان) إذا سجد يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»؟ لماذا لا يقول: «سبحان ربي الأسفل» أو «سبحان رب الذي عن يميني»، أو «سبحان رب الذي عن شمالي»؟!

إن الله أعلى من كلِّ شيءٍ، ولهذا كان الصحابة مع الرسول ﷺ إذا ارتفعوا على شيءٍ من الأرض وهم يسيرون ـ وكان مسيرهم دائمًا في طاعة الله إما في جهاد أو في عمرة، أو في حج ـ يقولون: «**كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»[2]، والتسبيح تنزيهٌ لله ﷻ، وجاء هذا الذكر في المنخفضات لتنزيهه عن السُّفْل، ويُكَبَّر لأن المرتفع له علوٌّ على الذي حوله، فيقول: العلو لله والكبرياء له، وليست لمخلوق، فالله ﷻ فوق عرشه مستوٍ عليه، وليس هو محتاجًا إليه، بل العرش يحمِلُه هو ﷻ بقدرته، وكذلك حَمَلَته، ولكن لحكمةٍ أرادها ﷻ.

أما اعتقاد: (أن الله في كل مكان) فهذا ضلالٌ وكفرٌ، فهم يقولون في ذلك كلامًا مُخترعًا مثل: (كان الله ولا مكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان).

نقول: نعم، كان الله ولا مكان، ولكنه خلق العرش فاستوى عليه،

---

(١) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢/ ٤٧٦)، والعلو للذهبي (ص١١٧).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب الجهاد والسير، باب التسبيح إذا هبط واديًا برقم (٢٩٩٣)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وأول المخلوقات هو العرش، وليس بأن الله استوى على العرش أنه يحتاجُ إليه.

وجاء في «الصحيحين» عن أبِي هريرة ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قالَ: **«يَنزِلُ ربُّنَا تَبارَكَ وتَعَالى كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيَا حينَ يَبقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ يقُولُ: منْ يَدعُونِي، فأَسْتَجِيبَ لهُ من يَسألُنِي فأُعْطِيَهُ، من يَستَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لهُ»**[1]، فهو ينزل وهو فوق كلِّ شيء نزولًا يليق به يخُصُّه، ليس نزولُه كالنزول المعهود لنا.

ولا يقال بمقتضى هذا الحديث: أن الله يلزمه أن ينزل في أربع وعشرين ساعة؛ لأن مسير الشمس بالأرض هكذا، حيث كلما انتهى آخر الليل بدأ فيما بعد، إلى أن تدور على الأرض أربع وعشرون ساعة.

نقول: هذا لو كان النزول مثل النزول الذين نعهده، فنزول الله ﷻ يليق بعظمته، ينزل سبحانه في آنٍ واحدٍ، وفي وقتٍ واحد، ويرتفع إلى عرشه، فهو كاستماعه لخلقه؛ حيث يستمع لهم في آنٍ واحد، وإن كانوا مِلْءَ السماوات وملْءَ الأرض، ولا يفوته سماعُ أحدٍ منهم.

فهذا النزول خاصٌ به ﷻ، فأفعاله كلُّها تخصُّه، ولا تُشبِه أفعال المخلوقين، ولهذا سبق أنَّ أفعاله ليست كأفعال أحد، كما أن صفاته ليست كصفات أحد، كما ذاته ﷻ ليست كصفات أحد.

وقوله: «بل هم متَّفِقون على أن الله فوق سماواته على عرشِه بائنٌ من خلقه»:

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل برقم (١١٤٥)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه برقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

معنى (بائن): أنه ﷻ ليس مختلطًا فيهم، فليس كما يقولون: إنه في كلِّ مكانٍ، في أجواف الحيوانات وفي الأماكن القذرة!! سبحان الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهذه العقيدة هي عقيدة من ضل منهم مثل ابن عربي واتباعه، ولا يزالون عليها، وكذلك الأشاعرة يقولون: إن الله في كلِّ مكانٍ!.

هذا ضلالٌ محضٌ؛ لأن هذا تكذيبٌ للقرآن، وردٌّ لكلام الله ﷻ، ومن كَذَّب القرآن وردَّ كلامَه فهو ليس بمؤمنٍ، ولكن لقيام الشُّبَه عندهم، والأمور التي تلقَّوْها عن مشايخهم الذين وثَقوا بهم، وإلا فهي تخالف كتاب الله، وتخالف الفِطَر السليمة، فإن هذه الشبه لما قامت عندهم مَنَعتْ من تكفيرهم حتى يُبيَّن لهم الأمر، ويوضَّح، فإذا أصرُّوا على مثل هذا، حُكِم عليهم بما قاله الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث قال: «أرى أنهم يستتابوا، فإن تابوا والا قُتلوا»[١].

قال أبو جعفر بن أبي عليّ الحافظ: «سمِعت أبا المَعَالِي الجُوَينِيّ وقد سُئِلَ عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فقال: كانَ الله ولا عرش وجعل يتخبط في الكلَام! فقلت: قد علمنَا ما أشرت إليهِ فهَل عنْدك للضرورات من حِيلَة؟ فقالَ: ما تُرِيدُ بِهذا القول وما تعنِي بهذِه الإشارة فقلت: ما قالَ عَارِف قطّ يا رباه إلَّا قبل أن يَتحَرَّك لِسَانه قامَ من بَاطِنه قصد لا يلْتَفت يمنة ولا يسرة يقْصد الفوق فهل لهذا القَصْد الضَّرُورِيّ عنْدك من حِيلَة فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت وبكيت وَبكى الْخلق فَضرب الْأُسْتَاذ بكمه على السرير وَصَاح ياللحيرة وخرق ما كان عليهِ وانخلع وصارَت قِيامَة في المسجِد ونزل ولم يجبني إلَّا يا حبِيبِي الحيرَة الحيرَة، والدهشة الدهشة، فسمِعت بعد ذلك أصحابه يقولُونَ

(١) المدونة (١/ ٥٣٠).

سمعناه يقُول: حيرني الهمدانِي»[١]. صار يبكي، رغم كبر سنه في ذلك الوقت، وكل وقته كان يتعلم ويقرأ، لكن رب كلمةٍ واحدةٍ كهذه تجعل علمه كلَّه يزول منها؛ لأنه مبنيٌ على جُرفٍ هار غير ثابت، ولو كان مبنيًا على كتاب الله، والنصوص التي يُعتمَد عليها، لا يزول علمه ولا يتزعزع إيمانه، وهذه صفة الحق، أن يكون ثابتًا، أما الباطل يتزعزع ويذهب، كما قال الله ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ويقول ﷻ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩]، فالباطل لا ثبات له، يذهب وينتهي، ولهذا فإن مِثْلَ هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام الباطل إذا جاءهم الموت يحارون فيما يعتقدون.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا أبو عبد الله الرَّازي من أعظَم النَّاسِ في هذا البابِ ـ بابِ الحِيرَةِ والشَّكِّ والاضطِرَابِ ـ لكن هو مُسرِفٌ في هذا الباب؛ بحيثُ لهُ نَهمَةٌ في التَّشكِيكِ دونَ التَّحقِيقِ بِخلافِ غيرِهِ؛ فإنَّهُ يُحقِّقُ شيئًا ويَثْبُتُ على نوعٍ من الحقِّ لكنَّ بعض النَّاسِ قد يَثْبُتُ على باطِلٍ محضٍ بل لا بُدَّ فيه من نوعٍ من الحقِّ، وكان من فُضلاءِ المتأخِّرين وأبرعِهِم في الفلسفة والكلام: ابنُ واصلٍ الحموي كانَ يقول: «أَسْتلقِي على قفَايَ وأضَعُ المِلْحَفَةَ على نِصفِ وجْهِي ثمَّ أذْكُرُ المقالاتِ وحُجَجَ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ واعترَاضَ هؤلاء وهؤلاءِ حتَّى يَطلُعَ الفجر ولم يَتَرَجَّح عندي شيءٌ»[٢]، لذلك لا بد للإنسان أنه يبني عقيدته بناءً صحيحًا، على قواعد سليمة، وهي كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، أما

---

(١) العلو للذهبي (ص٢٥٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٨٢).

هؤلاء فهم إذا جاءت الحقائق، زال ما عندهم من الرعونات ومن الكلام الذي لا حقيقة له.

وقوله: «ليس في مخلوقاته شيءٌ من ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ من مخلوقاته»:

ولا من صفاته أيضًا، فصفاته تقوم به ﷻ، والصفة لا تفارق الموصوف، ولكن الصفة لها أثرٌ، فمثلًا من صفات الله الرحمة، ومن آثارها الرحمة الموجودة عند الناس، ويجعلهم راحمين، والله يرحم الراحمين، وكذلك النعيم الذي ينال الخلق كُّلهم من آثار رحمته، والجنة أيضًا من آثار الرحمة، كما قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧]، ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: يعني: في الجنة، فسمَّاها رحمةً، وكذلك الحديث الذي في «الصحيحين»: **«قال للجنة: أنتِ رحمتي، أرحَمُ بكِ مَنْ أشاء»**(١)، هذه آثارها.

وكذلك الخلقُ، فمن آثار صفة الخلق المخلوقات، ولهذا فأفعاله تكون لازمةً وتكون متعديةً، فالأفعال المتعدِّية لا بد أن يظهر أثرُها، أما اللازمة التي مثل: الاستواء والنزول والمجيء؛ فهذه تقوم به ﷻ.

المقصود: أنَّ الله ﷻ يفعل ما يشاء، وله الصفات الكاملة، والأفعال الكاملة، كما أنَّ ذاته ذاتٌ كاملة، لا يُشبِهُها شيءٌ ـ كما سبق ـ.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ برقم (٤٨٥٠)، مسلم في «صحيحه» في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء برقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقوله: «وقد قال مالك بن أنس رحمه الله: «إنَّ الله في السماء، وعلمَه في كلِّ مكان»»:

(علمه): يعني أنه لا يفوته شيء، وسمعه أيضًا كذلك، ولهذا يقول ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، ويقول ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤].

فبعلمه واطِّلاعه وإحاطته لا يفوتُه شيء، فكلُّ الخلقِ محيطٌ به، وكلُّهم في قبضتِه، كلهم يشاهِدُهم، ويسمع كلامهم ويراهم.

ولهذا المعيَّة انقسمتْ إلى قسمَين:

القسم الأول: معيةٌ عامة شاملة؛ ـ كما في الآيات السابقة ـ، يعني: عامة للخلق كلهم.

القسم الثاني: معيةٌ خاصة، تخص أهل الطاعة، وأهل التقرب إليه؛ كما قال ﷻ في موسى وأخيه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، يعني: معكما دون فرعون، فهو مع موسى ومع هارون، وليس مع فرعون، فالله ﷻ معهما يسمع ويرى، فكان لهذا مقتضى، ولهذا مقتضى آخر.

والمقتضى: أي: الذي يدل عليه.

فالأولى: من مقتضاها الخوف والاطلاع والمراقبة، أي: إذا علمت أنَّ الله معك يجب أن تراقِبَه وتخافه، ويجب ألا يشاهدك وأنت تعصِيَه وتخالف أمره.

وأما الأخرى: فمقتضاها النصر والتأييد والحفظ والكَلَاءة، ولو كان مثلًا معناها الاختلاط ما صار لها معنيان، بل معنى واحد لا يختلف!.

وقوله: «وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خلافةُ أبي بكرٍ حقٌّ قضاها الله في سمائه، وجمع عليها قلوبَ أوليائه»»:

يعني: أن هذه الأقوال مأخوذةٌ من قول الله جَلَّ وَعَلَا وقول رسوله ﷺ، وقبل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

كانت زينب أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُفخَرُ على أزواجِ النَّبِيِّ ﷺ تقولُ: زوَّجكُنَّ أهالِيكُنَّ، وزَوَّجَنِي اللهُ تعالى من فَوقِ سَبعِ سمَوَاتٍ»[(١)]، بكونه جَلَّ وَعَلَا فوق سبع سماوات، هذا أمرٌ مُتفَّق عليه بين أهل الإسلام والإيمان أتباع الرسول ﷺ، أما الذين ضلوا وحادوا عن الطريق، وتركوا كتاب الله، وكتاب رسوله ﷺ، فهم إما حيارى، وأما ضُلَّال.

وقوله: «وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنَّا والتابعون متوافرون نُقِرَّ بأن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُنَّة من صفاته»»:

قصَدَ المؤلِّف هنا ذِكْرَ الإجماع، بأنَّ هذا أمرٌ مجمَعٌ عليه، لا خلافَ فيه، ما خالف فيه أحدٌ من المعروفين في العلم والإيمان واتِّباع الحق، أما الذي خالف فهو ضالٌّ لم يَهْتَدِ بكتاب الله، ولم يقتدِ بأئمة الحق الذين عرفوا الحق واعتقدوه.

قوله: «فمن اعتقد أن الله في جوف السماء محصورٌ محاطٌ به، أو أنه مفتقِرٌ إلى العرش أو غير العرش من المخلوقات، أو أنَّ استواءه على عرشِه كاستواء المخلوق على كرسِيِّه، فهو ضالٌّ مبتدعٌ جاهلٌ...»:

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم برقم (٧٤٢٠).

بل يكون خارجًا من الإيمان بمثل هذا، وهذا أمرٌ اتَّفقت عليه كُتُب الله ورسُلِه، وأتباعُ الرُّسُل أجمعوا على ذلك، وكذلك فَطَر الله ﷻ عليه خلقَه؛ أنَّه عالٍ على كلِّ شيء، ولكن لا يكون شيء من المخلوقات تحيط به ويكون أكبر منه فتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا وتقدَّس سبحانه.

وقد أخبرنا ﷻ أنه يقبض المخلوقات كلَّها بيدِه، فتكون صغيرةً بالنسبة إليه.

* * *

﴿ «ومَنِ اعتقد أنه ليس فوق السماوات إلهٌ يُعبَد، ولا على العرش إلهٌ يُصلَّى له ويُسجَد، وأنَّ محمَّدًا لم يُعرَّج به إلى ربِّه، ولا نزل القرآنُ من عنده، فهو مُعطِّلٌ فرعونيٌّ ضالٌّ مبتدعٌ، فإن فرعونَ كذَّب موسى في أنَّ ربَّه فوق السماوات، وقال: ﴿...يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

﴿ ومحمدٌ ﷺ صدَّق موسى في أنَّ ربَّه في السماوات، فلما كان ليلة المعراج وعُرِج به إلى الله ﷻ، وفَرَض عليه ربُّه خمسين صلاةً، ذُكِر أنه لما رجع إلى موسى، وأن موسى قال له: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك؛ فإن أمَّتَك لا تُطِيق ذلك»، فرجع إلى ربه فخفَّف عنهم عشرًا، ثم رجع إلى موسى فأخبره بذلك، فقال: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمَّتِك»[1]، وهذا الحديث في الصحاح.

﴿ فمن وافَقَ فرعونَ وخالف موسى ومحمَّدًا ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فهو ضالٌّ، ومن مثَّل الله بخلْقِه فهو ضالٌّ.

﴿ قال نُعيم بن حماد: «من شبَّه اللهَ بخلقِه فقد كَفَر، ومن جَحَد ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَر، وليس في ما وَصَف اللهُ به نفسَه ولا رسولُه تشبيهًا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب المناقب، باب المعراج برقم (٣٨٨٧)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم (١٦٣).
(٢) كتاب العلو للذهبي (ص١٧٢).

الشَّرح

وقوله: «ومَنِ اعتقد أنه ليس فوق السماوات إلهٌ يُعبَد، ولا على العرش إلهٌ يُصلَّى له ويُسجَد...»:

أي: من اعتقد أن الله ليس فوق، وأنه ليس على العرشِ، وأن محمدًا ﷺ لم يُعرَّج به إلى السماء، فإنه ضالٌّ بل هو كافرٌ في هذا؛ لأن هذا أمرٌ قطعيٌّ، وكتاب الله ﷻ النصوص فيه واضحة، فإذا خالف ذلك فقد كذَّب كتاب الله وكذَّب رسوله، ومن كذَّب شيئًا من الكتاب يكون كافرًا، ولكن مثل ـ ما سبق ـ، بعض الناس تكون عنده شُبَهٌ، ويحتاج إلى إزالتها عنه.

ثم إطلاق الكفر على مثل هؤلاء ظاهرٌ جدًّا في أقوال السلف؛ مثل ما مرَّ معنا من قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «هؤلاء يجب أن يستتابوا، فإن تابوا والا قُتلوا»؛ يعني: أنهم كفارٌ، ولكن إذا جاء التعيين ـ تعيينُ شخصٍ بعينِه ـ فيحتاج الأمر إلى أنْ تُبيَّن له قبل الحكمِ عليه.

وقوله: «وأنَّ محمَّدًا لم يُعرَّج به إلى ربِّه»:

والعروج هو الصعود، والرسول ﷺ أول من أُسري به بروحه وبدنه إلى بيت المقدس، جُمع له الأنبياء هناك وصلى بهم، هذا أمرٌ لا نعرف حقيقته، ولكن الظاهر أن أرواحهم تجسدت، والله أعلم.

ثم عُرِّج به مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، ومع ذلك عُرِج به في آنٍ واحد، وفي وقتٍ واحد.

قال ﷺ ـ في قصة المعراج ـ: **«فانْطلقَ بِي جبريلُ حتَّى أَتى السَّماءَ الدُّنيا فاستفتحَ، فقِيلَ من هذا؟ قال: جبريلُ، قيلَ: ومن معك؟ قالَ: محمَّدٌ، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعَمْ، قيل: مرحبًا به فَنِعْمَ المَجِيءُ**

جاءَ ففَتَحَ...» الحديث[١]. فانتهى إلى سدرة المنتهى.

قوله: «فاستفتحَ، فقِيلَ من هذا؟ قال: جبريلُ، قيلَ: ومن معك؟ قالَ: محمَّدٌ، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعَمْ» هذا يدلُّ على أنَّ السماء مبنيَّة، وأن لها أبوابًا، ولا يُدخل إليها إلا من أبوابها، ولا أحدَ يَصِلُ إليها إلا من خلال أبوابها.

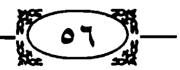
وكذلك جاء في صفة احتضار المؤمن أنَّ الملائكة يصعدون برُوحِه، فإذا وصلوا السماء استفتحوا الباب ففُتِح لهم، كما قال ﷺ: **«إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرةِ، نزَلَ إليهِ ملائكةٌ من السَّماءِ...»** الحديث[٢].

فالمقصود أنَّ الارتفاع هو العلو، ولم يجعل الله ﷻ السماء تعتمد على الأرض، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٢ - ٣]، وقال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠ - ١١]، قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، لا يُرى لها عَمَدٌ تعتمد عليه، فالله ﷻ خَلقَها هكذا، وبيَّن لنا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب المناقب، باب المعراج برقم (٣٨٨٧)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم (١٦٣)، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (١٨٥٣٤)، والحاكم في «المستدرك» برقم (١٠٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.



السَّحاب أيضًا؛ حيث يكون بين السماء والأرض ولا يحتاج إلى شيءٍ يعتمد عليه، مع أنه يحمل مياهًا عظيمة، لو أُرسيت على الأرض أغرقتها، تعالى الله وتقدَّس.

والمقصود قوله: «وأنَّ محمَّدًا لم يُعرَّج به إلى ربِّه» العروج يكون إلى العُلُوِّ، ولما وصل ﷺ إلى السماء السابعة، وانتهى إلى سدرة المنتهى، خاطبه ربه ﷻ وكلَّمه، قال ﷺ: «**ثُمَّ فُرِضتْ عليَّ الصَّلواتُ خمسينَ صلاةً كُلَّ يوم، فَرَجعتُ فمَرَرتُ على مُوسَى، فقالَ: بِمَا أُمِرتَ؟ قال: أُمِرتُ بِخَمسِينَ صلاةً كُلَّ يوم، قالَ: إنَّ أُمَّتَكَ لا تَستَطِيعُ خَمسِينَ صلاةً كُلَّ يوم، وإنِّي واللهِ قد جَرَّبتُ النَّاسَ قبلكَ، وعَالَجتُ بَنِي إسرائِيلَ أشدَّ المُعالَجةِ، فارجِعْ إلى ربِّكَ فاسأَلْهُ التَّخفِيفَ لأُمَّتِكَ، فرجَعتُ فَوضَعَ عنِّي عَشرًا، فَرَجَعتُ إلى مُوسَى فقالَ مِثْلهُ، فَرَجَعتُ فوَضَعَ عنِّي عَشرًا، فَرَجَعتُ إلى مُوسَى فقالَ مِثْلهُ، فَرَجَعتُ فوَضَعَ عنِّي عَشرًا، فَرَجَعتُ إلى مُوسَى فقالَ مِثْلهُ، فرَجَعتُ فأُمِرتُ بِعَشرِ صلواتٍ كُلَّ يوم، فَرَجَعتُ فقالَ مِثْلهُ، فَرَجَعتُ فأُمِرتُ بِخَمسِ صلواتٍ كُلَّ يوم، فَرَجعتُ إلى مُوسَى، فقالَ: بِمَ أُمِرتَ؟ قُلْتُ: أُمِرتُ بِخَمسِ صلواتٍ كُلَّ يوم، قالَ: إنَّ أُمَّتكَ لا تَستَطِيعُ خَمسَ صلواتٍ كُلَّ يوم، وإنِّي قد جرَّبْتُ النَّاسَ قبلكَ وعالَجْتُ بَنِي إسرَائِيلَ أشدَّ المُعالجةِ، فَارجِعْ إلى ربِّكَ فَاسأَلْهُ التَّخفِيفَ لأُمَّتِكَ، قالَ: سأَلْتُ رَبِّي حتَّى اسْتَحْيَيْتُ، ولكِنِّي أَرضَى وأُسَلِّمُ، قالَ: فلمَّا جاوَزْتُ نادَى مُنادٍ: أَمْضَيْتُ فرِيضتِي، وخَفَّفْتُ عن عِبَادِي**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب المناقب، باب المعراج برقم (٣٨٨٧)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم (١٦٣)، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة ﵄.

وقوله: «ولا نزل القرآنُ من عنده، فهو مُعطِّلٌ فرعونيٌّ ضالٌّ مبتدعٌ..»:

النزول لا بد أن يكون من علوٍّ إلى سُفْلٍ، والله نزَّل القرآن، قال ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]، وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن جَحَد ذلك يقول: «**فهو مُعطِّلٌ فرعونيٌّ**»: (مُعطِّل) يعني: عطَّل صفات الله عنِ المعاني التي أُريد منها، و«**فرعونيٌّ**»: نسبة إلى فرعون، وفرعون في الحقيقة أنكر ظاهرًا، وإلا قد استيقن قلبه أن ما جاء به موسى عليه السلام حقٌّ، ولهذا لما عايَنَ الموت، وذهب كِبْرُه، وغطرسته، قال الله ﷻ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾، والذي آمنت به بنو إسرائيل ما جاء به موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿...يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]: الأسباب أي: الوصول إلى السماء، ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٧]: ظاهرٌ جدًّا من الآية أن موسى عليه السلام أخبره أنَّ الله في السماء، وهكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: «ومحمدٌ ﷺ صدَّق موسى في أنَّ ربَّه في السماوات...»
محمدٌ ﷺ جاء بما يُصدق موسى عليه السلام، يعني: يتفق مع ما قاله موسى والرسل كلهم «**في أنَّ ربَّه في السماوات**»، والسماوات تعني: العلو، وليس في داخل السماوات، تعالى وتقدس.

وقوله: «فلما كان ليلة المعراج وعُرِج به إلى الله ﷻ، وفَرَض عليه ربُّه خمسين صلاةً، ذُكِر أنه لما رجع إلى موسى...»:

موسى عليه السلام له فضلٌ علينا؛ حيث طلب التخفيف لنا، فخُفِّفتْ من خمسين صلاة إلى خمس صلوات، ولما وصلَ إلى الخمس، قال له: «**فَارجِعْ إلى ربِّكَ**»، والرجوع معناه أنَّ هناك مكانًا أقرب من المكان الذي هو فيه، فقال: «**سأَلْتُ رَبِّي حتَّى اسْتَحْيَيْتُ**»، كان يرجع من عند موسى عليه السلام إلى ربه ﷻ، وهو يرجع إلى المكان الذي خاطبه فيه، وإلا الله فوق العرش، ومحمد ﷺ ما وصل إلى العرش، فإنه بينه وبين العرش مسافة عظيمة جدًّا؛ لأنه وصل إلى سِدْرَة المنتهى، وسدرة المنتهى هي التي ينتهي إليها ما صعد من الأرض، أو من السماوات، فناداه ربه ﷻ، وهو عند موسى عليه السلام: «**أَمْضَيْتُ فرِيضتِي، وخَفَّفْتُ عن عِبَادِي**»[1]، الحسنة بعشر أمثالها، فهذا كله من فضل الله ﷻ.

المقصود أنَّ هذا واضحٌ جدًّا في عُلُوِّ الله ﷻ، وأنه فوق ﷻ.

وقوله: «فمن وافَقَ فرعونَ وخالف موسى ومحمَّدًا ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فهو ضالٌّ»:

أي: في عقيدته وفي عمله.

وقوله: «ومن مثَّل الله بخلْقِه فهو ضالٌّ»:

يعني: أنه يجعل عُلُوَّه واستواءه على العرش للحاجة، فهو ﷻ الغنيُّ بذاتِه عن كلِّ ما سِوَاه؛ عنِ العرش وغيره.

وقوله: «قال نُعيم بن حماد: «من شبَّه اللهَ بخلقِه فقد كَفَر، ومن جَحَد ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَر...»»:

---

(١) تقدم تخريجه.

«**نُعيم بن حماد**» رَوَى عنه البخاريُّ ـ رحمهما الله ـ، كان شديدًا على الجهمية وأهل البدع، قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال محمد بن سعدٍ: طلب نعيمٌ الحديثَ كثيرًا بالعراق والحجاز، ثم نزل مصر، فلم يزل بها حتى أُشْخِصَ منها في خلافة أبي إسحاق ـ يعني: المعتصم ـ فَسُئِلَ عن القرآن فَأَبَى أنْ يُجِيْبَ فيه بشيءٍ مما أَرَادُوهُ عليه، فحبس بسامرَّاء فلم يزل محبوسًا بها حتى مات في السجن سنة ثمانٍ وعشرين ومائتين»[(١)].

قال نُعيم بن حماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من شبَّه اللهَ بخلقِه فقد كَفَر، ومن جَحَد ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَر، وليس في ما وَصَف اللهُ به نفسَه ولا رسولُه تشبيهًا**»[(٢)]، يعني: أنهم يقولون: إذا وصفتم الله ﷻ بأنه فوق، أو أنَّ له يدًا، أو أنه يغضب، أو أنه يرضى؛ شبهتم الله، **نقول**: ليس هذا تشبيهًا؛ لأنه ﷻ ليس كمثله شيء، أخبرنا بهذا وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، فنص على السمع والبصر؛ لأن السمع والبصر موجودٌ في المخلوقات، يقول: لا يدعكم قولي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] ألَّا تعتقدوا أن لي سمعًا

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٢٨).

(٢) قال الإمام الذهبي في السير (٩/ ٢٧) ـ معلقًا على كلام نعيم بن حماد ـ : «قلتُ: هذا الكلامُ حقٌّ، نعوذُ بالله من التَّشبيه، ومن إنكارِ أحاديثِ الصِّفات، فما يُنكِرُ الثابت منها من فقه، وإنما بعدَ الإيمان بها هُنا مقامانِ مذمُومان: تَأْويلُها وصرفُها عن موضوعِ الخطاب، فما أوَّلها السَّلفُ ولا حرَّفوا ألفاظها عن مواضِعها بل آمنوا بها وأمرُّوها كما جاءت. المقامُ الثاني: المبالغةُ في إثباتها، وتصورها من جنس صفات البشر، وتشكُّلها في الذِّهنِ، فهذا جهلٌ وضلالٌ، وإنما الصفةُ تابعةٌ للموصوفِ، فإذا كان الموصوفُ ﷻ لم نرهُ، ولا أخبرنا أحدٌ أنَّهُ عَاينهُ مع قولِهِ لنا في تَنزيلِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]، فكيفَ بَقِيَ لأذهَانِنا مجالٌ في إثباتِ كيفيةِ البارئِ تعالى اللهُ عن ذلك، فكذلكَ صفاتهُ المقدَّسةُ نُقِرُّ بها، ونَعتقدُ أنها حقٌّ ولا نُمثِّلُها أصلًا ولا نَتشكَّلُها» اهـ.

وبصرًا وعلمًا وقدرةً وإرادةً، وغير ذلك، فإنَّ سمعي وبصري وقدرتي ليست كالأسماء التي تعاهدونها وتعرفونها أو أنكم تعيشونها في أنفسكم.

* * *

۞ «وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ٥٢﴾ [مريم: ٥٢].

۞ فدلَّ ذلك على أنَّ الذين عنده هم القريبون إليه، وإن كانت المخلوقات كلُّها تحت قدرتِه، والقائل الذي قال: من لا يعتقد أنَّ الله في السماء فهو ضالٌّ، إن أراد بذلك ـ من لا يعتقد ـ أنَّ الله في جوف السماء بحيث تحصُرُه وتحيط به؛ فقد أخطأ، وإن أراد بذلك ـ من لا يعتقد ـ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتُها من أن الله فوق سماواته على عرشه بائنٌ من خلقه، فقد أصاب، فإنه من لم يعتقد ذلك يكون مكذبًا للرسول ﷺ، متبعًا لغير سبيل المؤمنين، بل يكون في الحقيقة مُعطِّلًا لربِّه نافيًا له، فلا يكون له في الحقيقة إلهٌ يَعبُدُه، ولا ربٌّ يسأله ويقصده.

۞ وهذا قول الجهمية، ونحوِهم من أتباع فرعون المُعطِّل».

۞ الشَّرح ۞

قوله: «وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾»:

هذا من الأدلة على عُلُوِّ الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، هل العمل الصالح يرفعه؟ الضمير هنا للكلم الطيب أو أن هذه جملة أخرى؟ المعنى: يصعد إليه الكلم الطيب، وهو ﷻ يرفع العمل الصالح إليه، ومعنى يرفعه: يقبَلُه، والرفع ضِدَّ الانخفاض، ويدخل فيه الرفع الحقيقي، بأن يرفعه ويقبله ويكتبه عنده.

وقوله: «**وقال تعالى**: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾»:

قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: الوفاة هي الموت أو النوم، وكثيرٌ من الناس يقول: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: أي قابضك بالكُلِّيَّة، ورُفِع ببدنه وروحه، ولكن التوفي الذي يظهر أنه الموت، فالذي يقوله كثير من المفسرين أيضًا أنه نام فرفعه نائمًا؛ لأنَّ النوم يسمى وفاة، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الزمر: ٤٢]: يعني: التي في المنام، فالنوم مثل الموت، ولهذا لما سُئِل النبي ﷺ: هل ينام أهل الجنة؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت**»[(١)]، وأهل الجنة لهم حياةٌ كاملة، كملت حياتهم فلا يحتاجون إلى النوم، وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول في هذا: إن الوفاة هنا حقيقة، تُوفي لكن توفي بدنُه وروحُه جميعًا، فرُفِعا، ولهذا ما يحتاج إلى أكلٍ ولا شربٍ، وهو في السماء الثالثة، ولا يحتاج إلى ما يلزم من ذلك، فإذا جاء الوقت المحدَّد الذي أراده الله ﷻ ينزله حيًّا؛ فيقتل الدجَّال، ثم يُتوفَّى في الأرض، الله جعل الإنسان يُتوفى مرةً واحدة، وليس مرتين، والله أعلم.

ولكن هو قسَّم الوفاة إلى ثلاثة، فيقول: الوفاة التي جاءت في لغة العرب، وجاءت في كتاب الله، **ثلاثة أقسام**:

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٧٩)، والبيهقي في «شُعب الإيمان» (٤٧٤٥).

القسم الأول: هو النوم، يُطلَق عليه، كما في الآية التي ذكرت.

القسم الثاني: هو الموت؛ بمفارقة الروح للبدن، وهذا الغالب، الموت يكون للبدن، والروح لا تموت في هذا.

القسم الثالث: خاصٌّ بعيسى، تُوفِّي بدنُه وروحُه معًا فرُفِعا، ويظهر أن هذه أيضًا وفاةٌ تخُصُّه، ليست كالوفاة التي هي مفارقة الروح للبدن نهائيًّا؛ لأن روحه في بدنه، ما خرجت، ولكنه لا يحتاج إلى أكلٍ وإلى شربٍ وإلى ماءٍ.

وفي هذا جوابٌ عن قول بعض الناس: إذا كان رُفِع حيًّا، فهو يحتاج إلى أكلٍ، ويحتاج إلى ما يلزم من الأكل!

نقول: هذا أمرٌ على غير المعتاد، فهو لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيءٍ من لازم لذلك.

وعلى كلِّ حالٍ: هذا هو ظاهر القرآن: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: يدلُّ على أنَّ الرفع يكون أقرب إلى الله، وهو في السماء الثالثة، أو الثانية.

وقوله: «قال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾»:

وسينزل كما جاءت الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ: «**يوشك أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكمًا عدلًا، يكْسِرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل الجزية**»(١)، يعني: لا يقبل إلا الإسلام، ثم يجتمع عليه دول الكفر الذين هم يأجوج ومأجوج؛ ليقاتلوه ومن معه، فيوحِي الله ﷻ إليه: «**إني**

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب البيوع، باب قتل الخنزير برقم (٢٢٢٢)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ برقم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد أخرجت عبادا لي، لا يَدَانِ لأحد بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور»(١)، فيتحصَّنون في الطور من هؤلاء؛ حتى يرغبون إلى الله ﷻ ويدْعُونَه، فيرسل عليهم مرضًا يُهلِكُهم، ثم يُطهِّرُ الأرض منهم، كما جاءت الأحاديث بهذا، عن رسول الله ﷺ.

وقوله: «وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾»:

يعني: القرآن مُنزَّل، والنزول يكون من العلوِّ إلى أسفل، فهو نازلٌ من الله؛ لأنه قوله وكلامه وهو فوق خلقه على عرشه.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: يعني أنه حقٌّ وما جاء به حقٌّ من الحُكم والخَبَر، وغير ذلك.

وقوله: «وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾»:

قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: أنه منزَّل مِنَ الله مثل الآية الأولى.

وقوله: «وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾»:

كلمة ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ هذا الشاهد يدلُّ على العِنْدِيَّة، وهذه تدلُّ على المكان، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾ [الأنبياء: ١٩]: يعني: ما يُقصِّرون فيها ولا يَفتُرُون، فالاستحسار هو شيءٌ من الفتور، وهو لا يعتريهم.

وقوله: «فدلَّ ذلك على أنَّ الذين عنده هم القريبون إليه..»:

يعني: أقرب من الذين تحتهم، وإن كانت المخلوقات كلها تحت قدرته، صغيرةً حقيرةً بالنسبة إليه ـ تعالى وتقدس ـ.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه برقم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

ثم بدأ يُجيبُ السائلَ؛ حيث قال: «والقائل..»، يعني: الذي قال: «من لا يعتقد أن الله في السماء فهو ضالٌّ»؛ ولأن هذا كلام مجملٌ، يجب أن يُفصَّل.

وقوله: «إن أراد بذلك ـ من لا يعتقد ـ أنَّ الله في جوف السماء بحيث تحصُّره وتحيط به؛ فقد أخطأ»:

هذا ليس هو ظاهر قوله، ولكن لما كان كثيرًا من الناس يعتقد أن الله تحويه الأمكنة! تعالى الله عن ذلك، فصّل في الجواب.

أي: بهذا القول، ولكن ليس هذا هو الظاهر، فالظاهر: أنه يقصد أنه في السماء مثل ما قال الله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]؛ أي: أنه في العلو.

وقوله: «وإن أراد بذلك ـ من لا يعتقد ـ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتُها من أن الله فوق سماواته على عرشه بائنٌ من خلقه، فقد أصاب»:

وهذا هو الحق، وهو الذي دلت عليه النصوص والعقول والفطر وإجماع الرسل وأتباعهم.

وقوله: «فإنه من لم يعتقد ذلك يكون مكذبًا للرسول ﷺ، متبعًا لغير سبيل المؤمنين...»:

ومن كان كذلك يوليه الله ما تولى، ويصليه جهنم وساءت مصيرًا.

وقوله: «بل يكون في الحقيقة مُعطِّلًا لربِّه نافيًا له...»:

(مُعطِّل): أي أنه جاحد له، لا يؤمن بوجود الله؛ لأنَّ الله ليس في الأرض، ولا في داخل المخلوقات، بل هو عالٍ على خلقِه مستوٍ على عرشِه، فمن لم يعتقد هذا، فهو معطِّل.

وقوله: «فلا يكون له في الحقيقة إلهٌ يَعبُدُه...»:

يعبد خيالًا أو يعبد شيطانًا، سيضمحل وسيأتي يومٌ يقول الله ﷻ للخلق: «من كان يعبد شيئًا فليتبعه»(١)، ويؤتى بالمعبودات على هيئتها وصورتها في الدنيا التي كانت تُعبَد، فمن كان يعبد عبدًا صالحًا، يؤت بشيطان على ما يتصوَّره ذلك العابد، فيتبعونه إلى جهنم، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله: «ولا ربٌّ يسأله ويقصده، وهذا قول الجهمية...»:

الجهمية هم أتباع جَهْم بن صفوان الضالِّ المضلِّ، الذي عُلم خروجُه عن طريق المؤمنين.

وقوله: «ونحوِهم من أتباع فرعون المُعطِّل»:

لأنهم مُعطِّلون لله عن أوصافه وعن أفعاله وعن استوائه على عرشه، وعلوه على خلقه ـ تعالى ـ وتقدَّس.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ برقم (٧٤٣٨)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﷺ «واللهُ قد فطر العباد عرَبَهم وعجَمَهم على أنهم إذا دَعَوا الله توجَّهت قلوبهم إلى العُلُوِّ، لا يقصدونه تحت أرجلِهم.

ﷺ ولهذا قال بعض العارفين: ما قال عارفٌ قطُّ (يا الله) إلا وَجَدَ في قلبه قبل أن يتحرَّك لسانُه معنًى يطلب العلوَّ، ولا يلتفت يمنةً ولا يسرةً، والقائل الذي قال: (إن الله لا ينحصر في مكانٍ)، إن أراد به أنَّ الله لا ينحصر في جوف المخلوقات، وأن الله لا يحتاج إلى شيء منها، فقد أصاب، وإن أراد أنَّ الله ليس فوق السماوات ولا هو على العرش، وليس هناك إلهٌ يُعبَد، ومحمدٌ لم يُعرَّج به إلى الله، فهذا جهميٌّ فرعونيٌّ مُعطِّل، بيّن الضلال، وكذلك إذا ظنَّ أن صفاتِ الربِّ كصفات خلقِه، فيظنَّ أنَّ الله ـ سبحانه ـ على عرشه كالملك المخلوق، على سَرِيرِه، فهذا تمثيلٌ وضلالٌ، وذلك أن الملك مفتقرٌ إلى سريره، ولو زال سريرُه لسَقَط، والله غنيٌّ عن العرش، وعن كلِّ شيء، والعرشُ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إلى الله، وهو حاملُ العرشِ وحمَلَةِ العرشِ، وعلوُّه عليه لا يُوجِب افتقارَه إليه، فإنَّ الله قد جعل المخلوقاتِ عاليًا وسافلًا، وجعل العاليَ غنيًّا عن السَّافل، كما جعل الهواءَ فوقَ الأرضِ، وليس هو مفتقرًا إليها، وجعل السماء فوق الهواء، وليست محتاجةً إليه، فالعليُّ الأعلى ربُّ السماوات والأرض وما بينهما أَوْلَى أن يكون غنيًّا عن العرشِ وسائر المخلوقات، وإن كان عاليًا عليها، ﷻ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا».

الشَـرح

قوله: «واللهُ قد فطر العباد عرَبَهم وعجَمَهم...»:

هذا دليلٌ آخر على علو الله وهو الاستدلال بالفطرةِ.

والفطرةُ: هي الخِلقة التي يُخلق عليها المخلوقُ، وتُجعل أمرًا ضروريًّا عنده، فطرهم على أن الله ﷻ فوق.

وقوله: «على أنهم إذا دَعَوا الله توجَّهت قلوبهم إلى العُلُوِّ...»:

وكذلك يرفعون أيديهم إلى الله ﷻ بمقتضى الفطرة.

وقوله: «ولهذا قال بعض العارفين: ما قال عارفٌ قطُّ (يا الله)...»:

العارفُ لله ﷻ هو الذي يكون الله عنده في قلبِه، معلومٌ أنه الخالق وأنه هو القادر على كلِّ شيء؛ فعلم مدلول أسماء الله تعالى وصفاته.

وقوله: «ما قال عارفٌ قطُّ (يا الله) إلا وَجَدَ في قلبه قبل أن يتحرَّك لسانُه معنًى يطلب العلوَّ...»:

أي: يطلب ربَّه من العلو، كما هو مدلول العقل والفطر والوحي.

وقوله: «لا يلتفت يمنةً ولا يسرةً...»:

هذه فطرةٌ فطَرَ الله عليها الخلق، وقد تكون البهائم كذلك.

يعني: أن هذه فطرة؛ فطر الله عليها خلقه، فهو من أكبر الأدلة على علو الله تعالى؛ ليكون حجة لله على من انحرف عن الفطرة مع الأدلة الكثيرة على ذلك.

وقوله: «والقائل الذي قال: (إن الله لا ينحصر في مكانٍ)»:

قوله: «والقائل ...» هنا جوابٌ للسائل.

قوله: «والقائل الذي قال: (إن الله لا ينحصر في مكانٍ)»:

يعني: هذا الرجل الثاني الذي أجاب الأول: «**وقال الآخر: إنَّ الله**

سبحانه لا ينحصر في مكانٍ»، وهو في كلِّ مكانٍ!، هذا المعنى هو عقيدة الأشعرية، وعقيدة الضُّلَّال من الجهمية، والجهمية منقسمةٌ **إلى قسمين:**

القسم الأول: نُفَاةٌ مُعطِّلة مطلقًا، هذا يغلِبُ على المُتكلِّمين، فهؤلاء لا يعبدون شيئًا أصلًا، فهم كما قيل يعبدون عدمًا.

القسم الثاني: عُبَّادٌ، قالوا: (ما دام أنه ليس فوق ولا يمين ولا شمال، ولا تحت ولا كذا، ولا كذا؛ إذًا هو سارٍ في المخلوقات كلِّها)، وصاروا يعبدون كلَّ شيء.

وكلا الأمرين شركٌ، ولهذا فالمُتكلِّمون لا ينفكُّ عن الشركُ، والشرك هو: أفظع الذنوب، وأعظمها.

وقوله: «والقائل الذي قال: (إن الله لا ينحصر في مكانٍ)، إن أراد به أنَّ الله لا ينحصر في جوف المخلوقات، وأن الله لا يحتاج إلى شيء منها، فقد أصاب...»:

إنَّ الله لا يحتاج إلى شيءٍ من المخلوقات؛ لا للعرش، ولا لغيره، ولا ينحصر فيها، فإن كان يقصد ذلك وهو أنه ليس في داخل المخلوقات فقد أصاب.

وقوله: «وإن أراد أنَّ الله ليس فوق السماوات ولا هو على العرش...»:

هذا مراده والظاهر من كلامه.

وقوله: «... وليس هناك إلهٌ يُعبَد، ومحمدٌ لم يُعرَّج به إلى الله، فهذا جهميٌّ فرعونيٌّ مُعطِّل، بيّن الضلال»:

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يجيب الجواب الذي لا يخرج عنه أحدٌ، إن أراد كذا فكذا، وإن أراد كذا فكذا، بحيث لا يوجد احتمال ثالث، وفي

الواقع أن السائل أراد الثاني، ولم يرد الأول وهو: «**جهميٌّ فرعونيٌّ مُعطِّل**»، ولكنه جاهلٌ لا يعرف ماذا يقول؟!

وقوله: «وكذلك إذا ظنَّ أن صفاتِ الربِّ كصفات خلقِه، فيظنَّ أنَّ الله ـ سبحانه ـ على عرشه كالملك المخلوق، على سَرِيرِه، فهذا تمثيلٌ وضلالٌ...»:

يعني: إذا اعتقد أنَّ الله ليس غنيًّا بنفسِه عن كلِّ شيء، أنه يحتاج إلى الاستواء على العرش، فهو ضالٌّ لم يعرف ربَّه ﷻ.

وقوله: «وذلك أن الملك مفتقرٌ إلى سريره، ولو زال سريرُه لسَقَط،...»:

والمخلوق كلُّه يفتقر إلى سريرِه، ولو زال لسَقَطَ من عليه، وخُلق فقيرًا، محتاجًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وقوله: «والله غنيٌّ عن العرش، وعن كلِّ شيء...»:

ولكن خلق العرش لحكمةٍ؛ ليبتلي خلْقَه: هل يؤمنون بذلك؟ أو لا يؤمنون؟، ولهذا كثيرٌ منهم لم يؤمن، بل كَفَرَ، فيستحقّ عذاب الله ﷻ.

وقوله: «والعرشُ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إلى الله...»:

أي: أن العرش كان معدومًا فخلَقَه الله، وهو غنيٌّ عنه وعن غيره، فهو الغنيُّ بذاته عن كلِّ ما سواه.

وقوله: «وهو حاملُ العرشِ وحمَلَةِ العرشِ...»:

يعني: بقدرته وإرادته؛ فإنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

وحَمَلة العرش، هو الذي يحملهم بقدرته ﷻ.

وقوله: «وعلوُّه عليه لا يُوجِب افتقارَه إليه»:

إنه هو العليُّ الأعلى على كلِّ شيء، وهو الغني عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه.

وقوله: «فإنَّ الله قد جعل المخلوقاتِ عاليًا وسافلًا، وجعل العاليَ غنيًّا عن السَّافل»:

هذا تقريبٌ للفهم فقط، وإلا فإن الله لا يُمثَّل في المخلوقات، والله أعلى وأجلُّ وأكبر وأعظم ـ تعالى وتقدس ـ.

وقوله: «كما جعل الهواءَ فوقَ الأرضِ، وليس هو مفتقرًا إليها، وجعل السماء فوق الهواء، وليست محتاجةً إليه...»:

والهواء يحمل السحاب غالبًا، ولكن قد يكون ليس هناك هواء، فالعليُّ الأعلى ربُّ السماوات والأرض وما بينهما أَوْلَى أن يكون غنيًّا عن العرش وغيره.

قلنا: إن هذا تمثيلٌ وتقريبٌ للفهم فقط، والله لا يُمثَّل بشيء، وليس كمثله شيء، ـ تعالى وتقدس ـ.

فهو غنيٌّ عن كلِّ المخلوقات، وسائر المخلوقات، وإن كان عليًّا عليها وفوقها، فهو الغني سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

❊ ❊ ❊

۞ «والأصلُ في هذا الباب: أنَّ كلَّ ما ثبتَ في كتاب الله، أو سُنَّةِ نبيه ﷺ؛ وجبَ التصديقُ به؛ مثل: عُلُوِّ الربِّ واستوائه على عرشه، ونحو ذلك.

۞ وأما الألفاظ المبتَدَعة في النفي والإثبات؛ مثل قول القائل: (هو في جهةٍ أو ليس هو في جهة، وهو متحيِّزٌ أو ليس بمتحيِّزٍ)، ونحو ذلك من الألفاظ المبتدعة التي تَنازَع فيها الناس، وليس مع أحدهم نصٌّ، لا عن الرسول ولا عن الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ ولا أئمة المسلمين، فإنَّ هؤلاء لم يَقُلْ أحدٌ منهم: (إنَّ الله في جهةٍ)، ولا قال: (ليس هو في جهة)، ولا قال: (هو متحيزٌ)، ولا قال: (ليس بمتحيِّز)، ولا قال: (هو جسمٌ أو جوهر)، ولا قال: (ليس بجسم ولا جوهر)، فهذه الألفاظ ليست منصوصةً في الكتاب ولا في السُّنَّة، ولا الإجماع، والناطقون بها قد يريدون بها معنًى صحيحًا، وقد يريدون معنىً فاسدًا، فمن أراد معنى صحيحًا يوافق الكتاب والسُّنَّة كان ذلك المعنى مقبولًا منه، وإن أراد معنىً فاسدًا يخالف الكتاب والسُّنَّة كان ذلك المعنى مردودًا عليه.

۞ فإن قال ذلك القائل: (إنَّ الله في جهة)، قيل له: ما تريد بذلك؟ أتريد بذلك أنه في جهةٍ موجودةٍ تحصُرُه وتحيط به؛ مثل أن يكون في جوف السماء، أم تريد الجهة أمرًا عدميًّا، وهو ما فوق العالم، فإنه ليس فوق العالم شيءٌ من المخلوقات، فإنْ أردتَ الجهة الوجودية وجعلتَ الله محصورًا في المخلوقات، فهذا باطِلٌ، وإن

أردت الجهة العدميَّة، وأردت أنَّ الله وحدَه فوق المخلوقات بائنٌ عنها، فهذا حقٌّ، وليس في ذلك شيءٌ من المخلوقات تحصره ولا أحاطَ به ولا عَلَا عليه، بل هو العالي عليها المحيطُ بها».

الشَّرح

قوله: «والأصلُ في هذا الباب: أنَّ كلَّ ما ثبتَ في كتاب الله، أو سُنَّةِ نبيه ﷺ؛ وجبَ التصديقُ به...»:

أي: وجب التصديق والإيمان به والعمل به، ودعاء الله به؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يعني: اعبدوه بالأسماء والصفات، فالدُّعاء من العبادة، بل أفضل العبادة، ليس مجرد التصديق فقط، لا بد من التصديق الجازم الذي هو الإيمان، ثم كذلك العمل بها، واعتقاد مدلولها وما دلَّت عليه.

وقوله: «مثل: عُلُوِّ الربِّ واستوائه على عرشه»:

أي: إنَّ هذا شيءٌ واجبٌ على كلِّ أحدٍ أن يكون ثابتًا في قلبه مستقرًّا لا يتزعزع، ولا يتطرَّق إليه الشُّبَه والشكوك.

وأن لله تعالى الكمال المطلق من كل وجه.

قوله: «وأما الألفاظ المبتَدَعة في النفي والإثبات...»:

فلا يوصف الله تعالى بها.

الله ﷻ يوصف بالنفي، ويوصف بالإثبات؛ فالنفي كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والإثبات معروف، وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ [الجن: ٣] ـ تعالى وتقدس ـ، فكذلك إذا وُصف بأشياء مبتدعة، ليست في الكتاب والسُّنَّة، في نفيٍ أو إثباتٍ فهو مردودٌ، ولكن يجب أن يُستفسَرَ مِنَ النَّافي أو المثبت لذلك، فإن تبيّن أنه يُريد حقًّا؛ قُبِل

الحق وردّ الباطل، وقيل له يجب أن تُعبر عن الحق بالألفاظ الشرعية.

وقوله: «**مثل قول القائل: (هو في جهةٍ أو ليس هو في جهة....)**»: ذكر هنا أمثلةً؛ مثل: (الجهة)، والجهة ما جاء إثباتُها وما جاء نفيها، وإنما جاء إثبات العلو وأنَّ الله في السماء، فالجهة تحتمل حقًّا وباطلًا، إذا قال: (إنَّ الله ليس في جهة)، إن كان يريد أنَّ الله ليس بجهةٍ وينفي العلو عن الله؟! **نقول**: هذا باطلٌ لفظًا ومعنًى، مردوٌد عليه.

أما إن كان يريد أنه لا جهة تحصُرُه وتحويه، **نقول**: هذا صحيحٌ، ولكن يجب أن تعبِّر بالعبارات الشرعية، لا تعبر بألفاظٍ مبتدعةٍ، ولكن يجب أن تعبِّر بألفاظ مستنبطة من القرآن أو السُّنَّة؛ كقولك: إنَّ الله في السماء، إنَّ الله مستوٍ على عرشِه.

وكذلك إذا قال: إن الله ليس جسمًا في النفي، أو أن الله جسمٌ في الإثبات، كلاهما باطلٌ، ولا بد أن نستوضح من القائل: ماذا تريد بالجسم؟ إذا كنت تريد بالجسم أن الله ليس له بدن كبدن المخلوق، أو شيءٌ مركَّب من لحمٍ ودمٍ وكذا، فهذا نعَمْ، فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولكن يجب أن تقول كما في سورة الإخلاص: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وكذلك إذا قال: (إن الله ليس بجوهر، أو أنه ليس بعرضٍ)، **نقول**: ماذا تريد بالعرض والجوهر؟

أولًا: تعريف الجوهر: هو الذي يقوم بنفسه، ويشغل مكانًا ويُشاهَد.

والعَرض: الذي لا يقوم إلا بغيره؛ مثل: العلم، والجهل، والمرض، والصحة، هذه تسمى أعراضًا؛ لأنها تَعْرِضُ ولا تُشاهَد.

فنقول: هل تريد من قولك: (ليس بجوهر) أنك تنفي وجود الله، أو أن الله ليس له حقيقة؟! إن كنت تريد هذا فهذا كفرٌ وإلحادٌ.

وكذلك إذا قلت: (ليس بعرض)، هل تريد أن الله ليس له سمعٌ ولا بصَرٌ، ولا علمٌ ولا قدرةٌ ولا إرادةٌ؟! إذا كنت تريد هذا فهذا كفرٌ أيضًا.

أما إذا كنت تريد أنه ليس له خصائص المخلوقين، ولا يتَّصف بشيءٍ من ذلك، **نقول**: هذا حقٌّ، ولكن تكتفي بالألفاظ الشرعية التي جاءت في الكتاب والسُّنَّة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، وهكذا يقاس على الألفاظ التي لم تأتِ في كتاب الله ولا في سُنَّة رسوله ﷺ، يستفسر عن صاحبها، فإن تبيَّن أنه يريد حقًّا، قُبِل الحقُّ ورُدَّ الباطِلُ، فالألفاظ تُرَدُّ والحق يُقبل ويقال له: يجب أن تعبر عن المعنى الصحيح بالعبارات الشرعية التي جاءت في الكتاب والسُّنَّة، ولا تعبر عنه بألفاظٍ مبتدعةٍ مخترعةٍ!.

إن لفظة (الجهة) من الألفاظ المبتدعة؛ لأنه لم يأتِ لا إثباتها ولا نفيها، وهي تحتمل حقًّا وباطلًا، وكل لفظٍ يأتي بهذا المعنى يحتمل أن يكون المراد به حقًّا، ويحتمل أن يُراد به باطلٌ، فإنه لا يكون من صفات الله ولا من أسمائه؛ لأنَّ صفات الله وأسماءه حسنى وعليا، والحسنى التي لا يتطرق إليها باطلٌ بوجهٍ من الوجوه.

ومعلوم من القواعد التي سبق ذكرها، وهي معلومةٌ في عقائد أهل السُّنَّة؛ أنَّ الله ﷻ لا يُوصَف إلا بما وَصَف به نفسَه، أو وصفه به رسولُه، لا دَخْلَ للاجتهاد والفكر في هذا، فإذا ثبتَ نصٌّ عن الله أو عن رسوله في صفة الله يجب أن تثبتها ويُعتقد مدلولها، وإذا لم يثبت فلا دخلَ في العقلِ في هذا.

قوله: «وإن أراد معنىً فاسدًا يخالف الكتاب والسُّنَّة كان ذلك المعنى مردودًا عليه» المعنى الفاسد يرد على قائله، ويقال له: يجب أن تعبر بالألفاظ الشرعية عن المعاني الصحيحة.

ومن ذلك، **يقول: «فإن قال ذلك القائل: (إنَّ الله في جهة)...»**: الغالب أنَّ الذين يقولون: «في جهة» يقصدون جهة العُلُوِّ، وأنَّ الله في جهة العلو، ولكن لفظ (جهة) لم يَرِدْ بها نص، ولا يجوز إثباتُها هكذا، بأن نثبت الجهة لله ﷻ، وأهل البدع يرمون أهل السُّنَّة بهذا، يقولون: إنهم يقولون: إنَّ الله في جهة، وهذا غير صحيح، فأهل السُّنَّة يقولون ما في كتاب الله، وأنَّ الله في العلو، وأنَّ الله فوق، وأن الله في السماء، وما جاءت النصوص به في كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ، أما أن يثبتوا كلامًا مبتدَعًا فلا.

ولكن هنا في كلام الشيخ رحمه الله يقول: إذا جاءنا مثل هذا؛ أي مثل قولهم: (في جهة، أو في حيز، أو في مكان، أو ما أشبه ذلك من الألفاظ يجب أن نستفصل مِن قائلِه.

فنقول: ماذا تريد بالحيز؟ ماذا تريد بالمكان؟ ماذا تريد بالجهة؟ فإن قال: إنه فوق عرشه، أو قال: إنه في جهةٍ عدمية، والعدمية معناه: الذي فوق العرش، فالعرش ما فوقه إلا رب العالمين، ليس فوقه شيء من المخلوقات، ولا يُقال: فيه فضاء.

وكذلك المكان إذا قال: (إن الله في مكان): ماذا تريد بالمكان؟ إذا فسَّره بما صحت به الأخبار وجاءت به النصوص نقول: المعنى مقبول، ولكن يجب أن يُعبَّر عنه بالعبارات الشرعية، يُعبر عنه بأنه فوق، بأنه في السماء، وما أشبه ذلك مما جاءت النصوص به.

وأما إذا أراد شيئًا آخر غير هذا من أنه في حيزٍ يحوزه ـ تعالى وتقدس ـ، أو في جهةٍ تحيط به ـ تعالى وتقدس ـ، أو ما أشبه ذلك، فيُقال له: اللفظ والمعنى كلاهما مردودٌ وغيرُ مقبولٍ.

ويجب أن تَعرِفَ ربَّك ﷻ بما تَعرَّف بِه إلى عبادِه من أوصافه التي وَصَفَ نفسَه بها، **هذه قاعدةٌ يجب أن نلتزمها، كلُّ لفظٍ يأتي فيه إجمالٌ،**

أو فيه احتمالٌ حقٌّ وباطلٌ ما يقبل في هذا إلا بالاستفصال وسؤال القائل، فإن أخبر أنه يقصد معنى صحيحًا قلنا: المعنى الصحيح يجب أن يُعبر عنه بالعبارات الشرعية، وهذه عبارات مبتدعة، لا يجوز أن تُقَرَّ، أما إذا عبر عن معنى فاسدٍ فيُرَدَّ لفظُه ومعناه كلاهما.

وقوله: «**فإنه ليس فوق العالم شيءٌ من المخلوقات...**»:

العالم يعني: السماوات السبع، والسماء السابعة هي أعلى السماوات، وفوقها بحر بينها وبينه مثل ما بين سماء وسماء، وفوق البحر الكرسي، والكرسي وسع السماوات كلها والأرض، بل جاء أن السماوات بالنسبة إليه كسبعة دراهم أُلقِيتْ في أرضٍ فلاةٍ، وهذا معناه أنه عظيمٌ جدًا، وفوق الكرسي العرش، والعرش هو أعظم المخلوقات وأكبرها، وهو سقف المخلوقات، والله ﷻ فوق عرشه لا يخفى عليه شيء، يعلمُ كلَّ شيء، فإذا كانت المخلوقات كلُّها صغيرة بالنسبة إليه، كيف يقال: أنه داخلها؟! تعالى وتقدس.

وبهذا يتبين ضلال أصحاب الوحدة، وأصحاب الحلول، والحلول يقول به أكثر المتكلمين مثل: الأشاعرة، والأشاعرة حلولية؛ لأنهم يقولون: إن الله في كلِّ مكان، يعني: حتى في أجوافهم، وفي أدمغتهم، وفي الحشوش وفي الأماكن القذرة! ـ تعالى الله وتقدس ـ إن مثل الذي يقول هذا القول، لم يقدر الله حقَّ قدرِه، ولم يعرفه!

أما المعطِّلة الذين ينفون لله ﷻ أن يكون له كرسيٌّ، أو أن له عرشًا استوى عليه أو غير ذلك، فهذا أمرُه واضحٌ وظاهرٌ، ولكن هؤلاء (الأشاعرة) الذين يزعمون أنهم هم أهل السنة يقولون: (إن الله في كل مكان)، ويجعلون الذي يثبت علوَّ الله واستواءه على عرشه أنه مجسِّم، وأنه مشبِّه!، فهذا ضلالٌ واضِحٌ.

ولهذا لما كان كثيرٌ منهم يشتغل في الأحاديث وشَرْحِها، لم

يستطيعوا أن ينفوا رؤية الله ﷻ يوم القيامة، ويضطربون في إثباتها؛ ولهذا لا يثبتون العلوَّ ويثبتون الرؤية، كيف؟ ولهذا قيل لهم: من أين يُرى؟ قالوا: لا من جهة، فضحك عليهم الناسُ، هل هناك شيء يُرى لا من جهة؟! فاضطروا في الأخير أنه يفسروا الرؤية بزيادة العلم!

فصفات الله ﷻ مرتَّبٌ بعضها على بعض، ولا تدل على باطل، بل تدل على الحقِّ فقط.

وقوله: «فإنه ليس فوق العالم شيءٌ من المخلوقات، فإنْ أردتَ الجهة الوجودية...»:

فإن أردت الجهة الوجودية وهي مخلوقة؛ مثل السماوات والأرض، بأن جعلت الله محصورًا في المخلوقات فهذا باطِلٌ، وليس معنى ذلك أنَّ العرش غير وجوديٍّ، بل وجوديٌّ، خلقه الله بلا حاجةٍ إليه، واستوى عليه لحكمةٍ أرادها ﷻ، ومنها: الاختبار والابتلاء، وهل نؤمن بذلك أو لا نؤمن؟ أو مثل ما وقع الناس فيه من الاختلاف، فمن آمن بأخبار الله ﷻ واتبعها فهذا المؤمن، ومن أرجعها إلى عقله وفكره ومذهبه فهذا الضلال.

وقوله: «وإن أردت الجهة العدميَّة، وأردت أنَّ الله وحدَه فوق المخلوقات بائنٌ عنها، فهذا حقٌّ...»:

وإن أردت الجهة العدمية؛ أي أن الذي فوق العرش ليس فيه شيءٌ مخلوق، وإنما فوق العرش رب العالمين ﷻ.

وأردت أن الله وحده فوق المخلوقات بائنٌ منها.

معنى «بائنٌ عنها» بأنه ليس مختلطٌ فيها، وليس حالًّا فيها، ولا فيه شيء من مخلوقاته، ولا هو في شيء من مخلوقاته تعالى الله وتقدس.

وقوله: «... وليس في ذلك شيءٌ من المخلوقات حَصَرَه ولا أحاطَ به ولا عَلَا عليه»:

قد يقال: إذا كان هو فوق عرشه وفوق مخلوقاته، فالرسول أخبرنا أنه ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا كلَّ ليلة في آخر الليل، وكذلك ثبت أنه ﷻ يأتي إلى الأرض يقضي بين خلقه يوم القيامة؟

فنقول: ينزل إلى السماء الدنيا وهو على عرشِه، فوق كل شيء، ولا يكون فوقه شيء، والنزول هذا يخصُّه، ـ وليس كالنزول المعهود لنا، فهذا صفة للمخلوق، ويكون في حق الله تصورٌ باطلٌ ـ، فلله ﷻ خصائصُ تخُصُّه لا يشاركه فيها أحدٌ.

ومما يُقرِّب هذا: كون السماوات والأرض مملؤة بمن يعبد الله، كلهم يعبدون الله ويسبحونه ويهللونه ويكبرونه، وكلهم يستمع الله لهم في آنٍ واحدٍ، لا يشغله سماع هذا عن سماع هذا، هذا أمرٌ معلومٌ لا بد منه.

وكذلك المحاسبة يوم القيامة: يحاسب الخلق كلَّهم في آنٍ واحدٍ، لا يشغله حسابُ هذا عن هذا، وكلهم يُكلِّمه كما قال الرسول ﷺ: «**ما منكم أَحدٌ إلَّا سيُكلِّمُهُ ربُّهُ ليسَ بَيْنَهُ وبَينَهُ تُرجُمَانٌ، فَينظُرُ أَيمَنَ مِنهُ فلَا يَرَى إلَّا ما قدَّمَ مِنْ عمَلِهِ، ويَنظُرُ أَشأَمَ منهُ فلَا يَرى إلَّا ما قدَّمَ، ويَنظُرُ بَينَ يَدَيهِ فلَا يَرَى إلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وجهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[1]، فكلُّ واحدٍ يتصوَّر أنه يكلِّمُه وحدَه وهو يكلِّم الجميع في آنٍ واحدٍ.

فالمقصود: أن صفات الله لا يجوز أن يعارِضَ بعضها ببعض، ونعلم أنَّ هذا شيءٌ مما هو يخصُّ ربنا ﷻ.

* * *

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم رقم (٧٥١٢)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار رقم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

۞ «وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

۞ وقد ثبت في «الصحيح»، عن النبي ﷺ: «إنَّ الله يقبض الأرضَ يوم القيامة، ويطوي السماوات بيمينه، ـ ثم يهزهن ـ، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟!»(١).

۞ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما السموات السبع والأرَضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلةٍ في يد أحدكم»(٢).

۞ الشَرح ۞

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

يعني: ما عظَّموه حقَّ تعظيمِه، ولا عرَفُوه المعرفة التي توجِبُ لهم

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ برقم (٧٣٨٢)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب صفه القيامة والجنة والنار برقم (٢٧٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، من غير لفظة: «فيهزهن»، فقد وردت هذه اللفظة في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين، وفيه: «جاء حبر من اليهود، فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك». وهذا الحديث أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم برقم (٧٥١٣)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم (٢٧٨٦).

(٢) تقدم تخريجه.

الإيمان، وترفع عنهم عذاب الله ﷻ، وما قَدَرُوه حق قدْرِه؛ لأنهم جَهِلُوه، وهذا يعطينا أنه يجب أن نتعلم ونعرف صفات الله على ما يليق بعظمتِه ﷻ، ونؤمن بها حق الإيمان، ولهذا مثَّل له؛ حيث يقول: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، القبضة معلوم أنها تصير في داخل اليد، واليد تحيط بها، إذا قبض عليها أنها مقبوضةٌ بيده، فهذا يدلُّ على عظمته وكبره، أنه أكبر من كلِّ شيء وأعظم من كل شيء.

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾:

جاءت السماوات بصيغة الجمع، والأرض مفردة؛ لأن الأرض إذا كانت متعددة، فهي طبقات واحدة داخل الأخرى بدون فتوقٍ، وبدون مسافاتٍ بينها، أما السماوات: فبينها مسافاتٌ شاسعة، وهي أكبر المخلوقات المُشاهدَة لنا وأعظمها فيطويها، ولهذا عبَّر عنها بالطيِّ، يطويها بيمينه.

وقوله: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾:

يدلُّ على أن لله يمينًا وله أخرى، حيث له يدان.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾:

التسبيح هو الإبعاد عن النقص والعيب، يعني: بعيد ربنا جدًّا عما يقوله هؤلاء المشركون الظالمون.

وقوله: «وقد ثبت في «الصحيح»، عن النبي ﷺ: «إنَّ الله يقبض الأرضَ يوم القيامة، ويطوي السماوات بيمينه...»»[1]:

في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّماواتِ يومَ القِيامةِ، ثُمَّ يأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ**

(١) تقدم تخريجه.

الْيُمْنَى، ثُمَّ يقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَينَ الجبَّارُونَ؟ أينَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثمَّ يَطْوِي الأرضِينَ بِشِمالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أينَ الجَبَّارُونَ؟ أينَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟..»(١)، فأثبت الشمال.

يقول الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: لفظة: «**بِشِمالِهِ**»، منكرة!(٢).

وليست منكرة وليست شاذة؛ لأن الشاذ الذي يخالف الثابت الصحيح، وهو خبرٌ عن النبي ﷺ، وقد قال بمقتضى ذلك بعض الصحابة، كما جاء عن ابن عباس وغيره، كما رواه ابن جرير في تفسيره، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا(٣).

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٥، ٤٤]؛ لأن العرب المخاطبين يعرفون أن الأخذ باليمين أقوى، ويعني: اليمين أقوى من الشمال، فخوطبوا بما يعرفون، والله ﷻ كِلْتَا يديه يمينٌ، كما جاء في الحديث، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الْمُقْسِطِينَ عند اللهِ على منابرَ مِنْ نُورٍ، عن يَمِينِ الرَّحمنِ ﷻ، وكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ...**»(٤). وليس معنى: «كِلْتَا يديه يمينٌ» أنها من جانبٍ واحد!، تعالى الله وتقدّس.

فإن هذه شُوهَةٌ، وقد قال بهذا بعض المتأخرين!، وهذا لا يجوز في حالٍ من الأحوال؛ لأن هذا نقص، ولكن معنى قوله: «**كِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ**»(٥)؛ كلتاهما كاملة تامة، لا يلحقها نقص ولا عيب كشمال

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم (٢٧٨٨).
(٢) ينظر: السلسلة الصحيحة تحت رقم (٣١٣٦)، (ص٣٧٥).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٢٤٦).
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر برقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٥) أخرجه الترمذي في «سننه» برقم (٣٣٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» برقم (٦١٦٧)، =

المخلوق، فشمال المخلوق أنقص من يمينِه، ويمينُه أقوى من شماله، فرُفِع هذا التوهم، «كِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ»: يعني: كلتاهما كاملةٌ تامةٌ لا يلحقها نقصٌ ولا عيب.

المقصود أن في هذا إثبات اليمين لربنا ﷻ، ـ وإثبات اليد الأخرى ـ، وربَّنا ﷻ أخبرنا أنَّ له يدين، ولكن سبق أن بعض الناس اعتقد في قول النبي ﷺ ـ في الحديث ـ: «**كِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ**»، اعتقدوا أن يديه من جهةٍ واحدةٍ، ومن جانبٍ واحدٍ! ـ تعالى الله وتقدَّس ـ فهذا شوهةٌ، ولا يجوز إثبات مثل هذا؛ ولهذا فالشمال بالنسبة إليه ﷻ كاملة؛ ولهذا لما ذكر ﷻ أخْذَه قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٥]؛ لأن الأخذ باليمين عند العرب وغيرهم أكمل وأقوى، فهذا الذي يدلُّ على أنَّ الشمال عند المخلوق أنقص من اليمين، وهذا الذي نُفي، فقيل: «كِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ»؛ يعني: كلتاهما كاملة تامة لا يلحقهما نقصٌ ولا عيبٌ، وليس المعنى أنهما من جانبٍ واحدٍ، تعالى الله وتقدس.

فالمقصود: أنَّ الكمال لله مطلقٌ في كلِّ شيء، فهذه قاعدة يجب أن نتبناها دائمًا، فله الكمال في أوصافه، وفيما يكون من ذاته، وفي أفعاله، وفي كلِّ شيء يتَّصِف به أو يفعله، تعالى وتقدس.

وفي تفسير هذه الآية قال ابن جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ «وكان ابن عباس يقول: إنما يستعين بشماله المشغولة يمينه، وإنما الأرض والسموات كلها بيمينه، وليس في شماله شيء»[(١)]، هذا قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ومثل هذا

= والحاكم في «مستدركه» برقم (٢١٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» برقم (٢٠٥٢٠). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٥)، ت: أحمد شاكر.

لا يُقال بالرأي أو بالتأويل، لكن يُقال عن توقيف وعن علم يُتلقى من الوحي.

استدلَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

يعني: إذا كان جَلَّ وَعَلَا خلق هذه المخلوقات؛ من السماوات والأرض وما بينهما، فهو يقبضها جَلَّ وَعَلَا بيده، وهذا يجب أن يكون على ظاهرِه، وتكون صغيرة بالنسبة إليه، وتكون في كفه حقيرة، وهو على كل شيء قدير.

وقوله: «وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما السموات السبع والأرَضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلةٍ في يد أحدكم»»:

هذه صغيرة جدًّا بالنسبة لربنا جَلَّ وَعَلَا، وهذا تقريبٌ لفهم الناس، وإلا فالله أعظم وأجلُّ وأكبر ـ تعالى الله وتقدَّس ـ فهو لا يُعجِزُه شيء، والسماوات بالنسبة إليه صغيرةٌ جدًّا، وهو أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، فإذا اعتُقِد هذا، زالت الأمور التي يقولها أهل الإلحاد وأهل الحلول والاتحاد، الذين ضلوا في دينهم وفي عقائدهم، حتى في عقولهم، ضلَّت واستولى الشيطان عليهم، والشيطان يريد أن يجمعهم معه في جهنم، وهم عملوا الأعمال التي تقتضي ذلك.

* * *

﴿ «وفي حديثٍ آخر: «إنه يرميها كما يرمي الصبيان الكرة»[(١)]، فمن تكون جميعُ المخلوقاتِ بالنسبة إلى قبضتِه - تعالى - في هذا الصِّغَر والحقارة، كيف تحيط به وتحصُرُه؟!

الشَّرح

قوله: «وفي حديثٍ آخر: «إنه يرميها كما يرمي الصبيان الكرة»:

يعني: المخلوقات أو السماوات والأرض يقبضها ثم يرمي بها، ويقول: «**أنَا الْمَلِكُ، أينَ الجبَّارُونَ؟ أينَ الْمُتَكَبِّرُونَ**»[(٢)]، وهذا عندما يهلِك الناس كلهم ويموتوا، فهو كما أخبر ﷻ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفي آيات أخرى.

قوله: «إنه يرميها كما يرمي الصبيان الكرة»:

من صغرها يعني: بالنسبة إليه وهو على كل شيءٍ قدير.

وقوله: «فمن تكون جميعُ المخلوقاتِ بالنسبة إلى قبضتِه - تعالى - في هذا الصِّغَر والحقارة، كيف تحيط به وتحصُرُه؟!»:

كيف تحيط به وتحصُرُه العقول والأفكار؟!

هذا لا يمكن أبدًا ولا يتصوره من يعرف قَدْرَ الله ﷻ.

* * *

---

(١) ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى (٦/ ٥١٦)، روى ابن جرير في «تفسيره» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه رأى رسول الله ﷺ، على المنبر يخطب الناس، فمر بهذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**يأْخُذُ السَّمواتِ والأرضينَ السَّبْعَ فيَجعَلُهَا في كَفِّهِ، ثُمَّ يقولُ بِهِما كما يقولُ الغُلامُ بالكُرَةِ: أنا اللهُ الواحِدُ، أنا اللهُ العزِيزُ**» حتى لقد رأينا المنبر وإنه ليكاد أن يسقط به» اهـ.

(٢) سبق تخريجه.

۞ «ومن قال: (إنَّ الله ليس في جهة)، قيل له: ما تريد بذلك؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السماوات ربٌّ يُعبدُ، ولا على العرش إلهٌ يُصلى له ويُسجد، ومحمد ﷺ لم يُعرَّج به إلى الله تعالى، والأيدي لا ترفع إلى الله تعالى في الدعاء، ولا تتوجه القلوب إليه، فهذا فرعونيٌّ معطِّلٌ، جاحدٌ لرب العالمين، وإن كان معتقِدًا أنه مُقِرٌّ به فهو جاهلٌ متناقضٌ في كلامِه، ومن هنا دخل أهل الحلول والاتِّحاد؛ كابن عربيٍّ، وابن سبعين، وقالوا: إن الله بذاته في كلِّ مكانٍ، وأنَّ وجود المخلوقات هو وجود الخالق، وإن قال: مرادي بقولي: ليس في جهة؛ أنه لا تُحيط به المخلوقات، بل هو بائنٌ عنِ المخلوقات، فقد أصاب في هذا المعنى».

۞ الشَرح ۞

هذا عكس الأول، كان الأول بالإثبات وهنا بالنفي.

قوله: «ومن قال: (إنَّ الله ليس في جهة)، قيل له: ما تريد بذلك؟»:

يعني: إذا نفى أن يكون الله في الجهة، **نقول له**: ماذا تريد بهذا النفي؟ لأن الجهة في الإثبات والنفي كلها باطلة إلا إذا استفسر من القائل وبين أنَّ له معنى صحيحًا ـ كما سبق ـ، **نقول**: يُقبل المعنى واللفظ مردودٌ.

وقوله: «فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السماوات ربٌّ يُعبدُ... فهذا فرعونيٌّ معطِّلٌ، جاحدٌ لرب العالمين»:

هل من يعتقد ـ هذه العقيدة ـ يكون كافرًا؟

وقد كَثُر من ألفاظ السَّلف أن الإمام أحمد، والبخاري، والدارمي، وسفيان الثوري، وغيرهم من العلماء الأوائل، تجد كثيرًا منهم يقول: إن من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إنَّ الله لا يُرى فهو كافر، وبعضهم يقول: إنهم اتفقوا على تكفير الجهمية، واتفقوا على تكفير المرجئة الذين يقولون: الإيمان هو المعرفة، مجرد المعرفة، وغير ذلك.

نقول: إذا جاء التعيين، فلا يُكفّر المُعيَّن إلا إذا أُزيل عنه الجهلُ والشُّبَه، فإن ثبت على قولة الكفر يُكفَّر بعينِه.

المقصود: أن النوع يُكفَّر على العموم، ولكن المُعيَّن لا يُطلق عليه الكفر إلا بشروطٍ؛ أن تُزال الشبهة عنه، ويُعلَم أنَّ هذا كفرٌ ويُثبت الدليل له، فإذا ثبت على باطله فهنا يُكفَّر.

وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يوجد في وقتهم من شرب الخمر بتأويل لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣]، فعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: أُتِيَ بِرجلٍ من المهاجرِينَ الأوَّلِينَ وقد كانَ شرِبَ فأَمَرَ بهِ أنْ يُجلدَ، فقالَ: لِمَ تَجْلِدُنَي بينِي وبَينَكَ كِتابُ اللهِ عز وجل، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: في أيِّ كِتابِ اللهِ تَجِدُ أنِّي لا أَجلِدُكَ؟ فقالَ: إنَّ الله تعالى يقولُ في كِتابِهِ ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة: ٩٣] الآيةَ فأَنَا من الَّذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ، ثمَّ اتَّقُوا وآمنُوا، ثمَّ اتَّقُوا وأحسِنُوا، شَهِدتُ مع رسولِ الله ﷺ بدرًا والحُدَيبِيَةَ والخَندَقَ والمَشَاهِدَ، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: ألا ترُدُّونَ عليهِ ما يقولُ؟ فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ هذه الآياتِ أُنزِلَتْ عُذْرًا لِلمَاضِينَ وحجَّةً على البَاقِينَ لأنَّ اللهَ عز وجل، يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:

٩٠] ثُمَّ قَرَأَ حَتَّى أَنْفَذَ الآيَةَ الأُخْرَى ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة: ٩٣] فإنَّ اللهَ ﷻ قد نَهَى أنْ يُشْرَبَ الخمرُ، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: صَدَقْتَ فماذا تَرَوْنَ، فقالَ عليٌّ رضي الله عنه: «نَرَى أنَّهُ إذا شَرِبَ سَكِرَ، وإذا سَكِرَ هَذَى، وإذا هذَى افْتَرَى، وعلَى المُفتَرِي ثمانُونَ جَلْدَةً» فأَمَرَ عُمَرُ رضي الله عنه فجُلِدَ ثمانِينَ»[1].

وكذلك في القصة التي ذُكرتْ في مجلس عمر رضي الله عنه وأفتى عثمان رضي الله عنه فيها، عن هشام بن عُروةَ، عن أبيه، «أنَّ يحيى بن حاطِبٍ، حدَّثهُ قال: تُوُفِّيَ حاطِبٌ، فأعْتِقَ من صلَّى من رَقِيقِهِ وصامَ، وكانت لهُ أمةٌ نُوبِيَّةٌ قد صلَّتْ وصامَتْ، وهي أعجمِيَّةٌ لم تَفْقَهْ، فلم ترُعْهُ إلا بِحَبَلِهَا، وكانت ثَيِّبًا، فذهبَ إلى عُمَرَ رضي الله عنه فَحَدَّثَهُ فقال: لأنتَ الرَّجُلُ لا تأتِي بخيرٍ، فأَفْزَعَهُ ذلك فأرسَلَ إليها عُمَرُ رضي الله عنه فقال: أَحَبَلْتِ؟ فقالت: نَعَمْ، من مرغُوشٍ بدرهمينِ، فإذا هي تَسْتهِلُّ بذلكَ لا تَكْتُمُهُ، قالَ: وصادَفَ عليًّا وعثمانَ وعبد الرَّحمنِ بن عوفٍ رضي الله عنهم، فقال: أَشِيرُوا عليَّ، وكان عثمانُ رضي الله عنه جالِسًا فاضطجعَ، فقالَ عليٌّ وعبد الرَّحمن: قد وقَعَ عليها الحدُّ، فقالَ: أَشِرْ عليَّ يا عُثمانُ، فقالَ: قد أشارَ عليكَ أخواكَ، قالَ: أَشِرْ عليَّ أنتَ، قالَ: أراها تَسْتَهِلُّ بهِ كأنَّهَا لا تَعْلَمُهُ، وليس الحَدُّ إلا على من عَلِمَهُ، فقالَ: صَدَقْتَ، والذي نفسي بِيَدِهِ ما الحَدُّ إلا على من علِمَهُ، فجَلَدَهَا عُمَرُ رضي الله عنه مائةً، وغرَّبها عامًا»[2]، فدرئ الحدُّ بالشبهة وجلدت تعزيرًا لتأخُّر علمِها بذلك.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٨١٣٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٥٢٦٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» برقم (١٧٥٤٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» برقم (١٧٠٦٥)، وفي «معرفة السنن والآثار» برقم (١٦٨٦٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» برقم (١٣٦٤٤).

المقصود: أنَّ الإنسان إذا أنكر شيئًا معلومًا من الدِّين جهلًا منه أو تأويلًا فإنه لا يُكفَّر حتى يُقام الدليلُ عليه، وعلى هذا الأساس يُفسَّر الحديث المشهور الذي في «الصحيحين»، عن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «**أَسْرَفَ رَجُلٌ على نَفْسِهِ، فلمَّا حَضَرَهُ الموتُ أوصَى بَنِيهِ فقالَ: إذا أنا مُتُّ فأحْرِقُونِي، ثمَّ اسْحَقُونِي، ثمَّ اذْرُونِي في الرِّيحِ في البحرِ، فواللهِ لَئِنْ قَدَرَ عليَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عذَابًا ما عذَّبَهُ بِهِ أَحدًا، قالَ ففَعَلُوا ذلِكَ بِهِ، فقالَ للأرضِ: أَدِّي ما أَخَذْتِ، فإذا هو قائِمٌ، فقالَ لهُ: مَا حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟ فقالَ: خَشْيَتُكَ، يا رَبِّ ـ أو قالَ مَخَافَتُكَ ـ فَغَفَرَ لَهُ بذلكَ**»[1]؛ يعني: لأنه جاهِلٌ، وإلا فإن إنكار البعث كفر، كما أن إنكار قدرة الله على الحياة وعلى جمع المتفرقات كفرٌ، ولكن هذا حُمِلَ على خوفِه مِنَ الله، وجهلًا منه أن الله يقدر على جمع شتاته.

أما الشرَّاحُ في قوله: «**فواللهِ لَئِنْ قَدَرَ عليَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عذَابًا ما عذَّبَهُ بِهِ أَحدًا**» جعلوا من الفعل (قدر) مشدد الدال، أي: (قدَّر) فجاءت بمعنى: (ضيَّق)، وهذا التأويل ليس صحيحًا؛ لأنَّ المقصود القدرة على ظاهِرها، فالجاهل لا يُحكَم عليه بأنه كافِرٌ حتى يُعلَّم ويُبيَّن له.

وقوله: «... فهذا فرعونيٌّ معطِّلٌ، جاحدٌ لرب العالمين، وإن كان معتقِدًا أنه مُقِرٌّ به فهو جاهلٌ متناقضٌ في كلامِه»:

الجهل كونه يقول: إن الله ﷻ بذاته في كل مكان؛ لأنه نفى أنه في جهةٍ، ثم اعتقد أنه في كل مكان بين المخلوقات وفي المخلوقات، وما يقول هذا إلا فرعونيٌّ مُعطِّلٌ جاحدٌ لربِّ العالمين؛ فرعوني؛ لأن فرعون

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار برقم (٣٤٨١)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم (٢٧٥٦)، واللفظ له، من حديث أبي سعيد ﷺ.

قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشعراء: ٢٣]، فأنكر وجود الله ﷻ، وليس كما يقول بعض المفسرين أنه هنا استفسر عن ماهية الله!، بل أنكر وجود الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فلهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «**فهذا فرعونيٌّ معطِّلٌ**»، أي: مُعطِّل المخلوقات عن خالِقِها.

والتعطيل ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تعطيل الربِّ ﷻ عن أوصافه وأفعاله.

القسم الثاني: تعطيل المخلوق أنْ يكون له خالق.

وفرعون ـ لعنه الله ـ جمع بين الأمرين.

وقوله: «وإن كان معتقِدًا أنه مُقِرٌّ به فهو جاهلٌ متناقضٌ في كلامِه» فإن كان معتقدًا أنه مقرٌّ بالله، فهو جاهلٌ متناقض، كيف تُقِرُّ بالله وأنت تقول: إنه ليس فوق، وليس له مكان تعالى الله وتقدس؟!

ولهذا إذا سمعتَ مثل كلام المعتزلة وغيرهم من الأشاعرة وغيرهم يقولون: ليس فوقًا، وليس تحتًا، وليس يمينًا، وليس شمالًا، وليس داخل العالم ولا خارج العالم، ولا في مكان ولا يجري عليه زمان، هذا النفي المطلق المحض من هؤلاء، يدل على أنهم لا يعتقدون معبودًا لهم.

وقوله: «ومن هنا دخل أهل الحلول والاتِّحاد؛ كابن عربيٍّ، وابن سبعين، وقالوا: إن الله بذاته في كلِّ مكانٍ»:

قوله: «ومن هنا»:

يعني: من هذا الباب.

وقوله: «دخل أهل الحلول...»:

الذين يقولون: إن الله في كل مكان، فالحلول كون الرب ﷻ حل في المخلوقات.

وقوله: «والاتِّحاد»:

الاتحاد أعظم من الحلول، فمعناه: اتَّحد في المخلوق وصار هو والمخلوق شيئًا واحدًا ليس اثنين، وهذا نهاية الكفر.

والحلول مثل ما تقول النصارى، ولكن النصارى يخصُّون الحلول في عيسى فقط، أما هؤلاء يجعلونه حتى في الكلاب، نسأل الله العافية.

وقوله: «كابن عربيٍّ»:

هو ابن عربي الطائي، الملحد الصوفي، له كتبٌ كثيرةٌ، وهو إمامٌ لهم، يأتمون به ويعظِّمونه ويُسَمُّونه محيي الدين!

وقوله: «وابن سبعين»:

إمامٌ لهم ـ أيضًا ـ، يأتمون به ويعظِّمونه ويُسَمُّونه قطب الدين![1].

وقوله: «وقالوا: إن الله بذاته في كلِّ مكانٍ...»:

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله في «الفتاوى» (٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧): «ابن سبعِين كان من أئِمَّةِ هؤلاء وكان له من الكُفْرِ والسِّحرِ الذي يُسمَّى السِّيمِيَا والموافقةُ للنَّصارَى والقَرامطَةِ والرَّافِضَةِ: ما يُناسِبُ أُصُولَهُ. فكلُّ من كان أخبَرَ بِباطِنِ هذا المذهبِ ووافقهُم عليه كان أظهَرَ كُفْرًا وإلحَادًا. وأمَّا الجُهَّالُ الذين يُحسِنُونَ الظَّنَّ بقولِ هؤلاء ولا يُفهِمُونهُ ويَعتقِدُونَ أنَّهُ من جنسِ كلامِ المشَايِخِ العارفِينَ الذينَ يَتكَلَّمُونَ بكلامٍ صحِيحٍ لا يَفهَمُهُ كثِيرٌ من النَّاسِ فهؤُلاءِ تجِدُ فِيهِم إسلامًا وإيمَانًا ومُتابعةً للكتابِ والسُّنَّةِ بحسبِ إيمانِهِم التَّقلِيدِيِّ وتجِدُ فيهم إقرارًا لهؤلاءِ وإحسانًا للظَّنِّ بهم وتَسلِيمًا لهم بِحسبِ جهلِهِم وضلَالِهِم؛ ولا يُتصَوَّرُ أن يُثْنِيَ على هؤلاء إلا كافرٌ مُلْحِدٌ أو جاهلٌ ضَالٌّ. وهؤلاء من جنسِ الجَهمِيَّة الذين يقولون: إنَّ الله بِذاتِهِ حالٌّ في كلِّ مكان ولكنَّ أهلَ وحدَةِ الوجُودِ: حقَّقُوا هذا المذهبَ أعظمَ من تحقِيقِ غيرهم من الجهمِيَّة...» اهـ

تعالى الله وتقدَّس، فهو ﷻ بذاته فوق عرشِه، تعالى الله وتقدس، ولا تكون الأماكن إلا تحته كلها، وكما سَبَق أنه يقبضها كلَّها بيده وتكون صغيرة.

وقوله: «وقالوا: إن الله بذاته في كلِّ مكانٍ، وأنَّ وجود المخلوقات هو وجود الخالق»:

يعني: أنه داخلٌ فيها!، هذا معنى الحلول، أو أنه متَّحِدٌ فيها، وهذا أعظم الكفر.

إنَّ أوَّل عقيدةٍ يجب أن تكون ثابتةً في قلب المؤمن أنَّ الله فوق، فإذا سَجَد قلبُه يذهب إلى العُلُوِّ، يسبح ربَّه من العُلُوِّ؛ ولهذا يرفع يديه إليه، ولهذا شُرع عند العلو والصعود التكبيرُ؛ أي: أن الله أكبر من كل شيء، وأعلى من كلِّ شيء، كما في حديث عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «**كُنَّا إذا صعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»[(١)]، فيُسبَّح تنزيهًا له من أن يكون في السُّفل؛ ولهذا أمرنا نبينا ﷺ أن نقول في السجود: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[(٢)]؛ لأن الأرض أسفل سافلٍ.

والعلو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: علو ذات.

القسم الثاني: علو معنى.

وعلوُّ المعنى هذا لا ينكره أحدٌ، لكن علوّ الذات الذي كونه فوق، فالمقصود أنَّ هذا من أصل العقيدة، ويتعلَّق بالأعمال، فكل العقيدة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل برقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.



مرتبطةٌ بالعمل؛ ولهذا أهل السنة يُعرِّفون الإيمان بأنه علمٌ وعملٌ وقولٌ، كلها أركان للإيمان، العلم ركن والعمل ركن، والقول ركن من الأركان، وإذا فات واحدٌ من هذه الأركان فات الإيمان كله.

وقوله: «**وإن قال: مرادي بقولي: ليس في جهة؛ أنه لا تُحيط به المخلوقات، بل هو بائنٌ عنِ المخلوقات، فقد أصاب في هذا المعنى**»:

ولكنه أخطأ في اللفظ ـ كما سبق ـ.

* * *

﴿ «وكذلك مَن قال: (إن الله متحيِّزٌ) أو قال: (ليس بمتحيِّزٍ): إن أراد بقوله متحيِّزٌ أنَّ المخلوقات تحُوزُه وتحيط به فقد أخطأ، وإن أراد به أنه منحازٌ عنِ المخلوقات بائن عنها عالٍ عليها، وأنها لا تحويه فقد أصاب.

﴿ ومن قال (ليس بمتجيز): إن أراد أن المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب، وإن أراد أنه ليس ببائن عنها: بل هو لا داخلًا فيها، ولا خارجًا عنها، فقد أخطأ.

الشَّرح

هذا تفصيلٌ مثل ما سبق.

قوله: «وكذلك مَن قال: (إن الله متحيِّزٌ)»: الحيِّز هو المكان، وقوله: **«وكذلك مَن قال: (إن الله متحيِّزٌ) أو قال: (ليس بمتحيِّزٍ)...»**: لا بد فيه من الاستفسار، فإن ذكر شيئًا لا يليق بالله ﷻ يُرَدُّ عليه لفظُه ومعناه، وإن أراد معنى صحيحًا قيل له: المعنى صحيح، ويجب أن تُعبِّر عنه بالعبارات الشرعية التي وَرَدَت، أما اللفظ هذا فهو مردودٌ.

وقوله: «إن أراد بقوله متحيِّزٌ أنَّ المخلوقات تحُوزُه وتحيط به فقد أخطأ»:

أخطأ لفظًا ومعنًى.

قوله: «وإن أراد به أنه منحازٌ عنِ المخلوقات بائن عنها عالٍ عليها، وأنها لا تحويه فقد أصاب...»:

«بائن عنها»؛ أي: بائنٌ منها وأنه فوقها، **نقول**: هذا المعنى صحيح ولكن يجب أن تعبر عنه بالعبارات الشرعية التي وردت في الشرع

في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ؛ مثل: العلو، والفوق، والاستواء وما أشبه ذلك من الألفاظ الشرعية.

* * *

ﷺ «والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: أهل الحلول والاتحاد، وأهل النفي والجحود، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة».

الشَّرح

هذا حصرٌ للناس كلِّهم، أنهم لا يخرجون عن **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: أهل الحلول والاتِّحاد؛ وسبق أن الحلول غير الاتحاد، فالحلول كونه حلَّ بالمخلوقات.

والاتحاد كونه اتَّحد فيها ولا فرق بين المتّحِد والمتّحَد فيه، وهذا نهاية الكفر.

القسم الثاني: أهل النفي والجحود؛ مثل الذين يجحدون وجود الله، وينفون أن يكون له مكان تعالى الله وتقدَّس.

هذان القسمان كفرًا بالله ﷻ.

القسم الثالث: أهل الإيمان والتوحيد والسنة؛ الذين يقولون: إن الله فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، ويؤمنون بما أخبر به على ظاهره من غير تأويل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، بل يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ.

* * *



۞ «فأهل الحلول يقولون: إنه بذاته في كلِّ مكانٍ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة، فيقولون: وجود المخلوقات وجود الخالق؛ كما هو مذهب ابن عربيٍّ: صاحب «الفصوص»، وابن سبعين، ونحوهما».

۞ الشَّرح ۞

يعني: هذا الباطل الظاهر لم يصل إليه إبليس في كفره وعصيانه، فهم كفروا كفرًا واضحًا ظاهرًا، جعلوا المخلوق هو عين الخالق تعالى الله وتقدَّس؛ ولهذا يقول ابن عربي:

ألا كلُّ قول في الوجود كلامُه ... سواء علينا نثرُه ونظامُه[1]

يعني: النثر والنَّظْم ونبح الكلاب، كلُّه كلام الله ـ تعالى الله وتقدس ـ؛ لأنه يرى أن المخلوقات هي الخالق، حيث يقول:

العبد ربٌّ والربُّ عبدٌ ... ليت شعري من المكلف
إنْ قلتُ: عبدٌ، فذاك ميتٌ ... وإن قلتُ: ربٌّ، أنَّا يُكلَّف؟[2]

وابن سبعين أضلُّ منه، وغيرهما كثيرٌ؛ مثل: ابن الفارض، والقونوي، والششتري والتِّلمسانيّ، وكثيرٌ من الصوفية، وإذا بحث الإنسان في الصوفية وما آلت إليه نجدها وصلت إلى هذا الحد في بعض طرقها، وصل بهم الحال إلى أن الله في المخلوقات؛ ولهذا يحرصون على أن يكون عندهم شبابٌ حِسَانُ الوجوه، ويقولون: هو في الله، تعالى الله وتقدَّس.

---

(١) الفتوحات المكية (٧/ ٢٠٧).

(٢) غاية الأماني في الرد على النبهاني (٢/ ٤٣١)، والفتوحات المكية، خطبة الكتاب (١/ ١٥).

وقوله: «فأهل الحلول يقولون: إنه بذاته في كلِّ مكانٍ...»:

تعالى الله وتقدَّس، حتى في الأمكنة التي لا يحسن ذكرها.

وقوله: «وقد يقولون بالاتحاد والوحدة...»:

الوحدة: أنه لا فرق بين خالقٍ ومخلوق، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق.

وقوله: «فيقولون: وجود المخلوقات وجود الخالق؛ كما هو مذهب ابن عربيٍّ: صاحب «الفصوص»، وابن سبعين، ونحوهما»:

يقصد كتاب «فصوص الحِكم» وهو كتاب كبير، وقد طُبع، وفي هذا الكتاب كفرٌ واضِحٌ وجَلِيٌّ، وله كتب أخرى كـ«الفتوحات المكية»، وله كتاب اسمه «الهو» وغير ذلك، وكذلك «**ابن سبعين، ونحوهما**».

* * *

ﷺ «وأما أهل النفي والجحود فيقولون: لا هو داخلُ العالم ولا خارجه، ولا مبايِنٌ له ولا حالٌّ فيه، ولا فوق العالم ولا فيه، ولا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء، ولا يَتقرَّب إليه بشيءٌ، ولا يدنو منه شيءٌ، ولا يتجلَّى لشيءٍ، ولا يراه أحدٌ، ونحو ذلك.

ﷺ وهذا قولُ متكلِّمةِ الجهمية المعطلة، كما أنَّ الأول قولُ عُبَّاد الجهميَّة، فمتكلِّمةُ الجهمية لا يعبدون شيئًا، ومُتعبِّدة الجهمية يعبدون كلَّ شيء، وكلاهما مرجِعُهم إلى التعطيل والجحود الذي هو قولُ فرعون».

الشَّرح

هذا هو النفي المطلق، وهو مذهب أهل الاعتزال، وأتباعهم الذين هم فرعٌ عليهم؛ مثل: الأشاعرة؛ فهم فرعٌ على المعتزلة، كما قرر ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «وأما أهل النفي والجحود فيقولون: لا هو داخلُ العالم...»:

العالم يعني: المخلوقات؛ مثل: السماوات والأرض، هذا الذي نعرفه، وهل هناك شيءٌ غير هذا؟! «**لا هو داخلُ العالم ولا خارجه**»: فأين يكون؟! هذا باطِلٌ لا يمكن، إنك تنفي الشيء ثم تقول: لا خارج العالم ولا داخل العالم، هل يكون في شيء غير هذا؟

إلا إذا قال: أراد بالعالم السماء والأرض، **نقول**: نعم، ليس داخلًا فيها، ولكنه خارجٌ عنها، ولكنهم ينفون هذا وهذا، لا داخل فيهما ولا خارج عنها.

وقوله: «ولا مبايِنٌ له...»:

المبايِنُ: أي كونه مستقلًّا بائنًا منها، لا فوقها، ولا يمينها، ولا شمالها، وهذا نفيٌ مُطلَق[١].

وقوله: «ولا مبايِنٌ له ولا حالٌّ فيه»:

كلُّ هذه مبالغاتٌ في النفي، «لا هو داخلُ العالم ولا خارجه، ولا مبايِنٌ له ولا حالٌّ فيه، ولا فوق العالم ولا فيه».

ولهذا قال: «أهل النفي»: أي: أهل الجحود، وعدم الإيمان بالله ﷻ هذا من الكفر المبالغ فيه.

وقوله: «ولا حالٌّ فيه»:

يعني: داخلٌ فيه.

وقوله: «... ولا فوق العالم ولا فيه»:

كيف يعني هذا؟ من أين أتَوا بهذا الكلام؟! كلُّ هذه أفكارٌ من عندهم، لا يأخذونه من نص كتاب الله ولا من سُنَّة رسوله ﷺ، ولا من العقل؛ لأن العقل لا يتعارض مع النقل.

وقوله: «ولا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء...»:

الله ﷻ أنزل الكتب، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]، ويقول: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]، وكذلك يقول: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى (٥/ ٣١٧): «ذَكَرَ ابنُ فورك كلامَ ابن كُلَّابٍ أنه قال: وأخرجَ من النَّظرِ والخبرِ قولَ من قال: لا هو في العالَم ولا خارجٌ منه فنَفَاهُ نفيًا مُستَويًا؛ لأنَّهُ لو قيل لَهُ: صِفْهُ بِالعدَمِ ما قَدَرَ أن يقولَ فيهِ أكثرَ منْ هذا وردَّ أخبارَ اللهِ نصًّا وقالَ في ذلك ما لا يجوزُ في نصٍّ ولا معقُولٍ وزعَمَ أنَّ هذا هو التَّوحيدُ الخالِصُ» اهـ.

يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]، وغير ذلك كثير؛ في التصريح بأن الله فوق خلقه.

فالأدلة التي تُثبِتُ علوَّ الله ووجوده أكثر من أن تُحصَى؛ لأنَّ الله ﷻ عليمٌ حكيمٌ يعلم أنَّ الناس يحتاجون إلى مثل هذا فأكثر منه، وجعله أمرًا يعلمه كلُّ أحدٍ.

وقوله: «ولا يَتقرَّب إليه بشيءٌ»:

الظاهِر أنه لا يَقْرَبُ إليه شيءٌ؛ لأنه قال: «**ولا يدنو منه شيءٌ**»، أما التقرُّب فمعناه التقرُّب بالطاعات، وهذا لا يُنكَره أحد، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]، **والقرب جاء لمعنيين في كتاب الله:**

المعنى الأول: أن يكون قريبًا من الدَّاعي كما في هذه الآية.

المعنى الثاني: أن يكون قريبًا من العابد؛ كقوله ﷻ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: ١٩]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ من رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ، فأكثِرُوا الدُّعاءَ**»[١].

يعني: فهو قريبٌ من عابِدِه، وقريبٌ من داعيه، تعالى وتقدَّس، أما يكون قريبًا من الخلق كلِّهم فلا، ولكنه محيط بخلقه وهم في قبضته.

ثم كذلك الجنة قريبة منه؛ ولهذا قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، وأهل البدع يسمُّون أهل السنة

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



«العندية»؛ لأنهم يُثبِتون أن هناك شيئًا عند الله تعالى الله وتقدَّس، كما يسمونهم «الأيْنِيَّة»؛ مع أنها ألفاظ شرعية، فالأَيْنِيَّة أنه يُسأل: «**أين الله؟**»، كما سأل المصطفى ﷺ الجارية[1].

وقوله: «ولا يتجلَّى لشيءٍ»:

يعني: التَّجلِّي هو الظهور والوضوح والبَنَاء والرؤية، وهذا يكون يوم القيامة في الموقف وفي الجنة؛ لأنه يتجلَّى لعبادِه المؤمنين فقط.

وقوله: «ولا يراه أحدٌ، ونحو ذلك»:

هذا إنكارٌ لله ﷻ.

وقوله: «وهذا قولُ متكلِّمةِ الجهمية المعطلة، كما أنَّ الأول قولُ عُبَّاد الجهميَّة...»:

معنى كلامه أنَّ الجهمية ينقسمون إلى **قسمين:**

القسم الأول: متكلِّمَةٌ.

القسم الثاني: عُبَّادٌ.

والعُباد صاروا حُلوليَّة اتِّحادية؛ لأنهم لما سمعوا المتكلمين يقولون: (إنه ليس فوقًا ولا يمينًا ولا تحتًا ولا شمالًا، قالوا: إذًا إنه داخِلُ هذه المخلوقات حالٌّ فيها، ولا فرق بين المخلوق والخالق!.

والمتكلمة صاروا ملاحِدَةً، أنكروا وجود الله تعالى وتقدَّس.

قوله: «كما أنَّ الأول قولُ عُبَّاد الجهميَّة...»:

الأوَّل يعني: الحلول والاتِّحاد، وهو قول عباد الجهمية.

وقوله: «فمتكلِّمةُ الجهمية لا يعبدون شيئًا»:

---

(١) تقدم تخريجه.

لأنهم عطلوا الله ﷻ من استوائه على عرشه وكونه فوق خلقه، ومن صفاته التي تَعَرَّف بها إلى عباده، فصاروا لا يعبدون شيئًا، ولهذا يقولون: المعطِّل يعبدُ عدمًا، والمشبِّه يعبد صنمًا، ومُتعبِّدة الجهمية يعبدون كلَّ شيء؛ أي: أنهم مشركون، فالذي يعبد مع الله شيئًا مشركٌ.

ولهذا يعبر أحيانًا شيخ الإسلام بعباراتٍ كثيرة، فيقول: «إن المتكلمين لا ينفكون عن الشرك»، أي: أنَّ الشرك ملازِمٌ لهم دائمًا، والمشرك الجنة عليه حرامٌ، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

شركهم هذا أعظم من الشِّرْك في العبادة؛ لأنهم جعلوه مثل المخلوقات أو أنقص من المخلوقات، هذا شركٌ في الأوصاف والأسماء وما يخصُّ الله ﷻ، أما الشرك في العبادة فهو الذي يخصُّ المخلوق، إن العبادة يجب أن تصدر من المخلوق، ويجب أن تكون خالصةً للخالق، أما إذا كانت غير خالصة فهي شركٌ، وهؤلاء يقول عنهم: «لا ينفكُّون عن الشِّرك، ملازِمٌ لهم»، نسأل الله العافية.

قوله: «ومُتعبِّدة الجهمية يعبدون كلَّ شيء، وكلاهما مرجِعُهم إلى التعطيل والجحود الذي هو قولُ فرعون»:

كيف صارت الحلولية إلى الجحود والتعطيل؟ لأنه ليس هذا الذي يعتقدونه هو الله، هذا شيءٌ تصوروه هم أنفسهم، فالحقيقة على خلاف ذلك، فهم في الواقع على ضلالٍ عظيم.

* * *

﴿ «وقد عُلم أنَّ الله تبارك وتعالى كان قبل أن يخلق السماوات والأرض، ثم خلقهما، فإما أن يكون دخل فيهما، وهذا حلولٌ باطلٌ، وإما أن يكونا دخلا فيه، وهو باطلٌ وأبطلُ.

﴿ وإما أن يكون بائنًا عنهما لم يدخل فيهما، ولم يدخلا فيه، وهو قول أهل الحقِّ والتوحيد والسُّنَّة».

الشَرح

يعني: هذا دليلٌ عقليٌّ على عُلُوِّ الله جل جلاله؛ لأنه دليلٌ عقليٌّ حصريٌّ.

قوله: «وقد عُلم أنَّ الله تبارك وتعالى كان قبل أن يخلق السماوات والأرض، ثم خلقهما...»:

إن الله جل جلاله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو كان قبل كل شيء، فالسموات والأرض خُلِقَت بعدما كانت عدمًا لا وجود لها.

فلما خلقهما، أين خلقهما؟ هل خلقهما في ذاته؟! تعالى الله وتقدس، فهذا لا يقوله أحد.

فالله خلقهما وهو بائنٌ عنهما، وفوق كلِّ شيء، لهذا قال: «وقد عُلم أنَّ الله تبارك وتعالى كان قبل أن يخلق السماوات والأرض»: لأنه أولٌ بلا بدايةٍ ليس لأوَّليَّته مبدأٌ فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

قال جل جلاله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ١ ـ ٦]، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **«اللهم ربَّ السَّماواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ العرشِ العظِيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، فالِقَ الحبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجِيلِ والفُرقَانِ،**

أعُوذُ بِكَ من شرِّ كُلِّ شيءٍ أنتَ آخِذٌ بناصِيَتِهِ، اللهُمَّ أنتَ الأوَّلُ فليسَ قَبلَكَ شيءٌ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بَعدَكَ شيءٌ، وأنتَ الظَّاهِرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ، وأنتَ البَاطِنُ فليسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»[١].

وقوله: «ثم خلقهما...»:

وذلك بعد أن لم تكن شيئًا.

وقوله: «فإما أن يكون دخل فيهما...»:

تعالى الله وتقدس، يعني: أنه خلقهما في ذاته تعالى، أو أنها هي في ذاته، وكلا القولين كفرٌ بالله ﷻ، فإذًا لا بدَّ أن يكون جَلَّ وعلا مباينًا للمخلوقات وفوق كل المخلوقات.

وقوله: «فإما أن يكون دخل فيهما، وهذا حلولٌ باطلٌ..»:

يعني: المخلوق من السماوات والأرض. وغيرهما، هو غير الخالق، والله تعالى مباين للمخلوقات، فهو غيرها.

وقوله: «وإما أن يكونا دخلا فيه...»:

يعني: أنه خلقهما ثم دخلا فيه تعالى الله وتقدس.

وقوله: «وهو باطلٌ وأبطلُ»:

يعني: أكثر بطلانًا وأبعد في العقل وفي الفطرة، ومن الأدلة.

وقوله: «وإما أن يكون بائنًا عنهما لم يدخل فيهما..»: وهذا هو الحق.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع برقم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقوله: «**... ولم يدخلا فيه**»:

ليس فيه شيءٌ منهما وليس هو في شيء منهما.

وقوله: «**وهو قول أهل الحقِّ والتوحيد والسُّنَّة**»:

أنه بائنٌ من الخلق، هذا حصْر.

والمقصود: أن هذا لإبطال هذه المذاهب الفاسدة الخبيثة.

* * *

۞ «ولأهل الحلول والتعطيل في هذا الباب شبهاتٌ يعارضون بها كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه سلفُ الأمَّة وأئمَّتُها، وما فطر الله عليه عبادَه، وما دلَّت عليه الدلائل العقلية الصحيحة، فإنَّ هذه الأدلة كلَّها متَّفِقَة على أنَّ الله فوق مخلوقاته عالٍ عليها، قد فطر الله على ذلك العجائز والأعراب والصبيان في الكُتَّاب، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى، وقد قال النبي ﷺ في الحديث «الصحيح»: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، فأبواه يهودانِه، أو ينصِّرانِه، أو يمجِّسانِه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء، حتى تكونُوا أنتم تجدعُونهَا».

۞ ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]»(١).

۞ وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز: عليك بدِينِ الأعرابِ والصبيان في الكُتَّاب(٢)، أي: عليك بما فطَرَهم الله عليه، فإن الله فطر عباده على الحقِّ، والرسلُ بُعِثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها»

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين برقم (١٣٨٥)، ومسلم في «صحيحه» في كتاب القدر، باب معنى «كل مولود يولد على الفطرة» وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين برقم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٣).

الشَّرح

قوله: «ولأهل الحلول والتعطيل في هذا الباب شبهاتٌ»:

من الشُّبَه التي يأتون بها: (أنَّ الله ﷻ مع الخلق)، هذه المعيه تتطلب المخالطة عندهم!

المعية في لغة العرب هي مجرَّد المصاحبة، والمعية لا تدلُّ على الاختلاط والامتزاج، ولهذا قرن الله ﷻ بين المعية وبين العلوِّ في آية واحدة، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤]، فالله معنا وهو على عرشه تعالى وتقدَّس، فهو لا يخفى عليه شيء؛ يسمع كلامِنا ويشاهدنا، ويعلم ما في صدورنا، ولا يخفى عليه شيء، ونحن في قبضته، فهو معنا بمعنى هذه الأمور، ليس بمعنى الاختلاط والامتزاج، ولهذا يقولون في لغة العرب التي نزل بها القرآن: المعية هي المصاحبة، وفي حديث الرسول ﷺ، يقول ﷺ: «**اللهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخلِيفَةُ في الأهلِ**»(١)، فالله يكون خليفةً في الأهل ومصاحبًا للمسافر؛ ومعناها الحفظ والكلاءة والعلم والاطلاع، ولقد سُمِع من كلام العرب أنهم يقولون: سرينا مع القمر، وكلامهم صحيحٌ؛ أي: بالمشاهدة والإنارة والرؤية، وغير ذلك.

فالمقصود أنَّ المعية لا تدل على المخالطة والممازجة والمداخلة كما يزعمون، هذا تأويل فاسد من شُبَهِهم التي يأتون بها.

ومن الشبه التي يأتون بها: الحديث الذي في «الترمذي» وغيره،

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره برقم (١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يقول: «**لو أَنَّكُم دَلَّيتُمْ بِحَبلٍ إلى الأرضِ السُّفلَى لَهَبَطَ على اللهِ**»[1]، يقولون: هذا يدلُّ على أنَّ الله في كلِّ مكانٍ.

نقول: هذا لأن الله ﷻ محيطٌ بكل شيء، والأرض صغيرة، بالنسبة إلى السماء وهي فوقها من جميع الجهات، فلو قُدِّر الإدلاء أن يستمرَّ فهو يستمر إلى فوق الأرض ثم إلى فوق السماوات، والعرش محيط بالسماوات والمخلوقات كلها.

على كل حال هؤلاء الذين يقولون مثل هذه الأقوال ـ إن الله في كل مكان! ـ ما عرفوا الله وما قَدَروه حقَّ قدرِه، تعالى وتقدَّس.

وقوله: «... وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة»:

الدلائل العقلية التي تكون مُقنِعة في الواقع، ويُتَّفق عليها، لا يدعيها واحدٌ ويدَّعي الآخر ضِدَّها.

وقوله: «... قد فطر الله على ذلك العجائز..»:

والعجائز عندهم إيمانٌ كاملٌ فضلًا من الله ﷻ، وكذلك «**والأعراب والصبيان في الكُتَّاب**»: الذين لم يتعلَّموا.

الكتَّاب: حِلَقُ العلم التي يتعلمون فيها أول ما يبدؤون في التعلم «**كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى**».

وقوله: «وقد قال النبي ﷺ في الحديث «الصحيح»: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، فأبواه يهودانِه، أو ينصِّرانِه، أو يمجِّسانِه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء، حتى تكونُوا أنتم تجدعُونهَا»»:

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» برقم (٨٤٩)، والترمذي في «سننه» في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد برقم (٣٢٩٨)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويروى عن أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة.

وهذا كان من أعمال الجاهلية؛ لأنهم كانوا يشقون أذنها أو يقطعونها، فيغيرون خلق الله، على حسب ما زَيَّن لهم الشيطان، أما الآن ما يُتعرض لهذا إلا أن يشاء الله.

والمقصود: أنَّ الشبهات التي تقولونها: إذا كنتم تعتقدون أنه مستوٍ على العرش محتاجٌ إليه، فهذه شبهةٌ باطلةٌ، يعني: يكون مستويًا على العرش، وهو الذي يحمل العرش ﷻ بقوَّتِه وقدرتِه، وليس بحاجةٍ إلى العرش، والعرش مخلوقٌ، كانَ بعدَ أنْ لم يكن، وقبل وجود العرش، أي: ما أحتاج إليه تعالى الله وتقدس.

ولهذا ذكر الله ﷻ أنه لما خلق السماوات والأرض في ستَّة أيام أنه استوى على العرش؛ قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] رتّب استوائه على العرش على الخلق بكلمة (ثم) التي تدل على الترتيب والتعقيب، فالله ﷻ مستوي على العرش، ولكن هذا استواء خاصًا، ولهذا قال سليمان التَّيميَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو سُئِلتُ أين اللهُ؟ لقلتُ في السَّماء، فإن قال فأين كان عرشُهُ قبلَ السَّماءِ؟ لقلتُ على الماء، فإن قال: فأين كان عرشُهُ قبلَ الماءِ؟ لقلتُ لا أعلمُ»[1].

قد جاء في حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه، أنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أين كان ربُّنَا ﷻ قبلَ أن يَخلُقَ خلْقَهُ؟ قالَ: «**كانَ في عمَاءٍ ما تَحتَهُ هواءٌ، وما فوقهُ هواءٌ، ثـمَّ خلقَ عرشَهُ على الماءِ**»[2]، يقول

---

(١) خلق أفعال العباد ص (٣٣)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/ ٤٤٤).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (١٦١٨٨)، والترمذي في «سننه» في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، (برقم ٣١٠٩)، وابن ماجه في «سننه» في افتتاح الكتاب، باب فيما أنكرت الجهمية برقم (١٨٢)، من حديث أبي رزين رضي الله عنه.

العلماء أن (عَمَاء) جاء مقصورًا وممدودًا، (عمى)، و(عماء)، فإذا قصد به الممدود، معناه الغمام الرقيق، كما قال ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، هذا يوم القيامة، وإذا كان المقصور فهو في شيءٍ غير معلوم أي: عَمِيَ الخلقُ عنه، ولا يعرفونه، والله أعلم.

إن من قال: إذا استوى على العرش: هل العرش يحمله؟ وهل يفضل من العرش شيء؟ وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا قيمة له ولا فائدة منه إلا التشكيك، وإثارة الشبهات، ذلك في الواقع من شبهات الشيطان، كما يذكرون أنَّ الله ﷻ يخرج من قدرته أشياء، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير؛ هل هذا عموم مطلقٌ أو أنه لا بد شيء من الاستثناء؛ مثل ما يقول السيوطي في آخر تفسير سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠]، قال: «وخصَّ العقل ذاته فليس عليها بقادر»[١] هذا كلامٌ باطلٌ، فقوله: خصَّ العقل ذاته! وهذا شيءٌ مستحيلٌ ممتنعٌ، حيث قصد أن الله لا يخلق مثله، وهذا من شبهات الشياطين التي يلقيها الشيطان.

نقول: هذا أصله سؤال باطل فهو ممتنع، والممتنع ليس شيئًا، فلا يُورِدُ مثل هذا.

والمقصود من قوله في الحديث: «**كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة...**»: ليس معناه أنه يُولد عالمًا بهذه الأشياء، ولكنه يُولد قابلًا للحقِّ مُريدًا له، إذا عُلِّم تعلَّم وهذا لا يخالف قولَه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه فُطر على قبول الحقِّ وإرادته، وإذا عُلِّم على خلاف ذلك تعلَّم.

---

(١) تفسير الجلالين (ص١٦١).

وقوله: «فأبواه يهودانه أو ينصِّرانِه أو يمجِّسانِه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء..» بنو آدم هم الذين يغيرون خلق الله ﷻ فيها.

وقوله: «ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾**»:**

خلق الله لا يُبدل، ولكن كلامه هل يُبدَّل؟

استدلَّ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقول الله سبحانه في هذه الآية: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، على أن الله يتكلم حقيقة، وأن كلامه غير مخلوق، إذ لو كان كلامه مخلوقًا لما استطاع أحدٌ أن يبدِّله أو يغيره.

وقوله: «وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز: عليك بدِينِ الأعرابِ والصبيان في الكُتَّاب..»:

الكُتَّاب هي حِلَق العِلْم التي يتعلمون فيها.

يعني: فطرتهم التي فُطِرُوا عليها، وهذا لأن في وقت عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ تغيير الفطر، يقولون: إن الله في كلِّ مكان، فهذا الذي حمله على هذا.

وقوله: «عليك بما فطَرَهم الله عليه، فإن الله فطر عباده على الحقِّ، والرسلُ بُعِثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها»:

ومقصوده: أنَّ العجائز والأعراب والصبيان يعرفون ما يذكره الله ﷻ عن صفاتِه وغيرها، ولكن الله فطرهم على قبول الحقِّ، وكذلك معرفته إذا عَلِموا وبُيِّنَ لهم، فهم يقبلونه ويقولون به ويعتقدونه، فالله فَطَر خلقه على الهدى، ولهذا تَجِدُ مثلًا هذه الظاهرة التي هي رفع الأيدي، وقصد العلو بالدُّعَاء شيء عند الإنسان مجبولٌ عليه.

وهذا شيء مفطور عليه الخلقُ كلُّهم، حتى البهائم ترفع رؤوسها إلى ربها ﷻ إما تشكو أو تستغيث وتدعو.

* * *

﴿ «وأمَّا أعداء الرسل؛ كالجهمية الفرعونية، ونحوهم: فيريدون أن يغيِّروا فطرة الله، ودين الله، ويُورِدُون على النَّاس شبهات بكلماتٍ مشتبهاتٍ، لا يفهم كثيرٌ مِنَ النَّاس مقصودَهم بها، ولا يحسن أن يجيبهم عنها، وقد بُسط الكلام في الرد عليهم، في غير هذا الموضع».

الشَّرْح

قوله: «وأمَّا أعداء الرسل؛ كالجهمية الفرعونية...»:

الفرعونية؛ لأنه مِثْلما سبق من ذكر لفرعون من أنَّه كَتَم الحق وجَحْدِه، وإلا ففرعون في قَرَارَة نفسه يعلم أنَّ موسى عليه السلام جاء بالهدى من عند الله جل جلاله، وكونه يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، قاتَلَه الله أنى يُؤفَكُ؟ فهو تجرَّأ جرأة عظيمة، فهؤلاء ينكرون الله؛ لأنهم أنكروا صفاتِه، وأنكروا: أين هو؟ تعالى الله وتقدَّس، فهم أشد إنكارًا لله من فرعون وأمثاله، وهؤلاء يدعون النَّاس إلى الإلحاد والكفر بالله.

فهم مثل فرعون تمامًا، حيث يريدون أنْ يغيِّروا فطرة الله، وما خلق الله عليه خلقَه من الإقرار به، والإيمان بعلُوِّه واطِّلاعِه على كلِّ أحدٍ وكلِّ قلبٍ.

وقوله: «ويُورِدُون على النَّاس شبهات بكلماتٍ مشتبهاتٍ، لا يفهم كثيرٌ مِنَ النَّاس مقصودَهم بها...»: يعني: ما يعرفون مقصودَهم بها وإنما يعرف ذلك من عرف مذهبهم.

وقوله: «ولا يحسن أن يجيبهم عنها...»:

أي: أنهم يقولون: إن الله جل جلاله لا يجري عليه زمان ولا كذا ولا كذا، فالذي يجهل مذهبهم ومجانبتهم للصواب، يظنُّ أنهم ينزِّهون الله، وهم يعطِّلونه تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وكذلك قولهم: إنَّ الله ﷻ ليس عرضًا ولا جسمًا: أي ليس عرضًا ولا تجري عليه الحوادث، ولا يدخل في الحوادث، فعندهم العَرَضُ مثلًا ـ مثل: الصفات؛ كالسمع، والبصر، والعلم، والإرادة، وما أشبه ذلك ـ ينفونها عن الله، وهذا مقصودهم بنفي العرض، فلهذا لا يفهمه إلا الذي يفهم مذهبهم.

وكذلك قولهم: ليس بجوهرٍ؛ أي: ليس له يَدٌ ولا وجهٌ، وليس له رِجْلٌ، ولا الأمور التي أخبر بها ﷻ، فيسمون كلَّ هذا بالجوهر، وينفونها عنه تعالى.

ويقولون: ولا يكون مقارنًا للحوادث ولا تجري عليه الحوادث؛ يعني: أنه لا يتكلم ولا يسمع ولا غير ذلك، كلُّ كلامِهم يكون للأمور التي لا يفهمها الإنسان العادي، لا يفهمها إلا من خبر مذهبهم، وهم يريدون الشَّرَّ، يريدون التعطيل.

وقوله: «وقد بُسط الكلام في الرد عليهم، في غير هذا الموضع»:

أي: بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله وردَّ عليهم، وكان رحمه الله قد بُلِيَ بهم وبمجادلاتهم، حتى في ذلك الوقت كان القضاة، وكان الكبراء الذين يتولَّوْن الإفتاء وغيره، كلُّهم من هذا القبيل؛ جهميةٌ في الواقع، وإن كانوا أشاعرةً في الظاهر، فالأشاعرة فرعٌ عن الجهمية، فلهذا كان يجادِلُهم ونالوا منه أذًى كثيرًا، سجنوه عدَّةَ مرَّاتٍ، حتى بَقِي مرَّةً في السِّجْن سبع سنوات في مصر، ثم مات مسجونًا رحمه الله.

كل ذلك بسبب هؤلاء؛ لأنه لما يكن ليسكت على افتراءاتهم وضلالهم وتضليلهم الناسَ، كان إذا سُئل عن شيء بيَّنه ووضَّحه، ينصح لله ولرسوله ولكتابه وللمسلمين وأئمَّتِهم، وجعل اللهُ ﷻ له القبول فيما بعدُ، وإلا ففي وقتِه كان محارَبًا وكانت كتُبُه أيضًا محارَبةً، وقد يُبحث عنها وتُحرَقُ، حتى أن بعضَ قضاتِهم حكم عليه بوجوب القتلِ، ويقول مبررًا حكمه: إنه كافر.

﴿ «وأصلُ ضلالِهم تكلُّمُهم بكلماتٍ مجمَلةٍ لا أصلَ لها في كتاب الله ولا سُنَّة رسولِه ﷺ، ولا قالها أحدٌ من أئمَّة المسلمين؛ كلفظ التحيُّز والجسم والجهة، ونحو ذلك، فمن كان عارفًا بحلِّ شبهاتهم بيَّنها، ومن لم يكن عارفًا بذلك فليُعرِضْ عن كلامهم ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسُّنَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ومن تكلَّم في الله وأسمائه وصفاتِه بما يخالِفُ الكتابَ والسُّنَّة فهو من الخائضين في آيات الله بالباطل».

الشَّرح

قوله: «وأصلُ ضلالِهم...»:

لأنهم يأتون بالكلمات المجملة المشتبهة التي لا يفهمها إلا مَنْ فَهِمَ مرادَهم ومذهبهم، وهذا قد تقدَّم الكلام فيه (الحيز والجهة).

أما الجسم: فالجسم عندهم ما شغل مكانًا، وكلُّ ما شَغَلَ مكانًا فهو جسمٌ عندهم، فلهذا ينفون عن الله الجسميَّة، ويقولون: إنَّ الله ليس بجسم، هذا أيضًا من البِدَع، والجسم لا يجوز إثباتُه ولا يجوز نفيه؛ لأنه لم يأتِ لا نفيًا ولا إثباتًا عن الله ﷻ، فإذا قالوا: إنَّ الله ليس بجسم؛ يجب أن يُستَفسر منه، ماذا تريد بالجسم؟ هل تريد أنه غير مركب من لحم ودمٍ وعظام، وغير ذلك؟ فهذا حقٌّ، ولكن يجب أن تقول كما قال الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، ولا تقول ليس بجسم، فذلك لفظ مبتدَع مخترَع.

وإن قال: أريد بأنه ليس مشابهًا للخلق، فنقول: نعم، هذا

صحيحٌ، ولكنَّ الله ﷻ له وجودٌ وله حقيقة، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وهذا معناه أنه ﷻ يُخبر عنه بأنه شيء، وأنه فوق، وأنه له مكان.

وعليه فإنَّ الإنسان في مثل هذا لا يخلو من أمرين:

الأمر الأول: إما أن يكون عارفًا بمرادهم وكلامهم، فيجادلهم بالتي هي أحسن وبالعلم، ويكون إظهار الحق مرادَه، ويبيِّنه لعلهم يرجعون.

الأمر الثاني: أنْ يكون غير عارفٍ بمرادهم وبكلماتهم، فهذا يعرض عنهم ولا يكلمهم ولا يلتفت إلى كلامِهم، ويكتفي بما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وهو كافٍ وافٍ لمن يريد الحق.

وقوله: «ومن تكلَّم في الله وأسمائه وصفاتِه بما يخالِفُ الكتابَ والسُّنَّة فهو من الخائضين في آيات الله بالباطل»:

هذا داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، يعني: إذا وافقهم الإنسان واستمع لهم وجالَسَهم في هذه المعاني التي يقولونها؛ يكون بذلك مثلَهم، فلا بدَّ أن يُنكِر عليهم ويردَّ عليهم وإلا يفارقهم، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠]، قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، يعني: إذا استمعتم لهم وجلستم معهم تكونون مثلهم في الحكم تمامًا.

* * *

﴿ «وكثيرٌ مِن هؤلاء يَنسُبون إلى أئمة المسلمين ما لم يقولوه، فينسبون إلى الشافعيِّ وأحمد بن حنبل ومالك وأبي حنيفة من الاعتقادات ما لم يقولوه، ويقولون لمن اتَّبعهم: هذا اعتقاد الإمام الفلاني، فإذا طولبوا بالنقل الصحيح عنِ الأئمة تبيَّن كَذِبُهم في ذلك، كما يتبين كَذِبُهم فيما ينقُلُونه عنِ النبيِّ ﷺ ويضيفونه إلى سنته مِنَ البِدَع والأقوال الباطلة.

الشَّرح

هذا تنويه على براءة الأئمة من أي ضلالة أو بدعة كما ورد في سؤال السائل في أول الأمر؛ حيث قال: «**وهما شافعيان**»، والشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يقول هذا الباطل أبدًا.

قوله: «وكثيرٌ مِن هؤلاء يَنسُبون إلى أئمة المسلمين ما لم يقولوه...»:

هو يعتقد أنهم يقولون ذلك ـ إذا أُحسِنَ الظنُّ بهم ـ عن جهلٍ، أما في حال كونهم يعرفون الحق، فهؤلاء يريدون التلبيس والتدليس والضلال، وهذا له حالٌ غير الأول، نسأل الله العافية.

وقوله: «فينسبون إلى الشافعيِّ وأحمد بن حنبل ومالك وأبي حنيفة من الاعتقادات ما لم يقولوه..»:

أي: أن هؤلاء الأئمة على حسب حالهم، قد يدَّعون الإجماع على هذه الأمور، ويقولون: إنَّ هذا إجماعُ العلماء وهم في الواقع؛ إما جاهلون، وإما مُلبِّسون لا يخلو الأمرُ من هذين: إما للجهل أو التلبيس على الناس.

وقوله: «ويقولون لمن اتَّبعهم: هذا اعتقاد الإمام الفلاني...»:

يعني: هذا اعتقادُ الشافعيِّ أو مالك أو غيرهما من الأئمة.

وقوله: «فإذا طولبوا بالنقل الصحيح عنِ الأئمة تبيَّن كَذِبُهم في ذلك»:

كما يتبيَّن كذبهم فيما ينقُلُونه عن النبيِّ ﷺ، في كثيرٍ مِنَ البِدَعِ والأقوال الضالَّة التي يعتقدونها ويقولونها، وهذا في الواقع يدخُلُ فيه كثيرٌ مِنَ الناس حتى بعض شُرَّاح الحديث، قد يقولون: إنَّ هذا مذهب الأئمة، وهو ليس كذلك!؛ مثل ما يقول ابن بطَّال رَحِمَهُ اللهُ في شرحه «صحيح البخاري»، لما ذكر البخاريُّ حديث رسول الله ﷺ: «**لا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ**»[(١)]: يقول ابن بطال: «وأجمعت الأمة على أن الله لا يجوز أن يوصف بأنه شخص»[(٢)]، وهذا من العجب!.

كيف للأمة أن تجمع على خلاف قول الرسول ﷺ؟ هذا الإجماع غير صحيح! وهذا كثيرٌ.

فالأمَّة لا تجتمع على ضلالةٍ، ومن اتَّهمهم ببدعةٍ أو ضلالةٍ أو افترى عليهم بقولٍ ليس لهم: هم تابعون لعقيدة الجهمية أو المعتزلة أو الأشاعرة.

ومن العجب أنهم يقتدون بأحد الأئمة في الفروع، أما الأصول التي هي العقائد فهم يقتدون بأبي الحسن الأشعري، أو أبي منصور الماتريدي!

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «**لا شخص أغير من الله**» تعليقًا، ووصله مسلم في «صحيحه» في كتاب اللعان برقم (١٤٩٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٤٤٢).

ومن العجب أن كتب أحد من تخرَّج في الأزهر في كتاب له يوصي فيه: إذا أردت الفقه فعليك بأحد المذاهب الأربعة، أما العقيدة فإما أن تتبع أبا الحسن الأشعري أو أبا منصور الماتريدي!

المقصود: أنَّ الكلَّ يدَّعى أنَّ الحق معه، وإن كان بعيدًا عن الحق كلَّ البُعْدِ، فيجب أن يكون الإنسان ذا بصيرةٍ، عنده علمٌ، وهذه فائدةٌ؛ كونُ الإنسان يجتهد في طلب العلم الشرعي الذي جاء به الوحيُ هو الذي ينفع، ولهذا يقول الله ﷻ ـ عن اليهود ـ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، فالدعوى بلا دليل لا تُعجِز أحدًا، فلا بد من الدليل والبرهان، هكذا ينبغي للإنسان أن يتعلَّم، أما إذا كان يتبع فلانًا بدون استعمال عقل، فهذا ملومٌ، وهو في هذا مثل ما قال الله ﷿ عن الأتباع: ﴿...كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وكلهم يُبرِّرون تبعيتَهم الباطلةَ بقولهم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]: أي: على ملَّة ودينٍ اتبعناهم فيها، ويردُّون دعوة الرسل بهذه الحُجَّة الواهية.

قال ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤] ما كان حُجَّتُهم إلا أنْ ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، ويقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨] يطلبون من الله ﷻ أن

يُضاعف على أعدائهم العذاب ويلعنهم لعنًا كبيرًا، يتبين لهم الضلال في ذلك الوقتِ، يومَ لا ينفعُ الندمُ.

المقصود: ما ينبغي للإنسان أن يكون متبعًا لفلانٍ بلا دليلٍ، والاتِّباع غير التقليد، الاتباع يجب أن يكون بدليلٍ يستدلُّ به، أما التقليد فهو مأخوذٌ من القلادة، كأنه وضع في رقبته قلادةً أعطاها من يقودُه بها، فهذا لا يجوز.

والأقوال الباطلة هي التي يبطلها الدليل، سواء كان الدليل سمعيًّا وهو الأصل، أو عقليًّا، والعقل يُرشَدُ ويُهدَى، فالله ﷻ جعل ما يرسل به رسله وما يُنزِل به كُتُبَه تُرشِدُ العقول، وتبين لها كيف الاستدلال، وكيف الاهتداء؟

* * *

«ومنهم من إذا طولب بتحقيقٍ نقلَه يقول: هذا القول قاله العقلاء، والإمام الفلاني لا يخالف العقلاء، ويكون أولئك العقلاء طائفةً من أهل الكلام الذين ذمَّهم الأئمةُ».

الشَّرح

هذا أيضًا من دَعْواهم، إذا تبنَّى قولًا من الأقوال، قال: هذا ما قاله العقلاء، والعقل في الواقع لا يستقلُّ بالمعرفة والهداية أبدًا، ولا يمكن له ذلك إلا بيد الله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ أي: يعقلون الخطاب ويفهمونه ويعرفونه، وهكذا.

فالعقل ليس مطلقًا بلا قيد، ولا يمكن للعقل في صفات الله ﷻ أن يكون له مجالٌ ونظرٌ؛ لأن هذه كلَّها أمورٌ غيبيةٌ، ولا نظيرَ لها في الوجود، حتى يمكن للعقل أن يقول: إنه يقيس كذا بكذا، فالقياس ممنوعٌ في صفات الله وفي آياته ﷻ، وكذلك لا يمكن أن يطَّلِع أحدٌ في نظرِه وفكرِه، حيث إن الله غيبٌ، فالله سبحانه هو الذي يخبر عن نفسه، وهو أصدق المخبرين ﷻ، وكذلك رسلُه، وليس له ﷻ شبيهٌ أو نظيرٌ حتى يقاسَ عليه، فإذًا يمتنع أن يكون العقل مدركًا شيئًا من ذلك، هذا يعني في الجملة، ولكن العقول السليمة تتَّفِقُ مع النصوص ولا تخالفها، أما دعوى أن العقل كذا وكذا، فالدعاوي لا تُقبَل إلا بالبراهين.

وقوله: «هذا القول قاله العقلاء، والإمام الفلاني لا يخالف العقلاء...»:

يقول هذا القول، ولا يقول: قاله الله وقاله رسوله، فإن هذا لا يريده، ولهذا وضع الشيطان لهم حُجَّةً يلجئون إليها في مثل هذا، يقول: إن أحاديث الرسول ﷺ أخبارُ آحادٍ، وأخبارُ الآحاد لا يُهتدَى بها إلى اليقين أو إلى العلم، ولا تدلُّ عليه!.

وإذا قيل لهم: كتاب الله، قالوا: كتاب الله قطعيُّ الثبوت، كونه ثبت لأنه متواتِرٌ حفظًا وكتابةً، ولكنهم يقولون: ظنيُّ الدلالة! إذًا ما الفائدة؟! آلت الأمورُ إلى الظُّنُون فقط، وإذا ما جاءوا إلى أفكارهم التي يستنتجونها جعلوها هي البراهين، وهي التي تدل إلى الحق!!

وهكذا يضع الشيطان لهم هذه الحجج والشُّبه التي يقول عنها الشيخ ﵀: «**ولأهل الحلول والتعطيل في هذا الباب شبهاتٌ يعارضون بها كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه سلفُ الأمَّة وأئمَّتُها، وما فطر الله عليه عبادَه، وما دلَّت عليه الدلائل العقلية الصحيحة**».

الفخر الرَّازي ـ عفا الله عنا وعنه ـ، وضع كتابه الذي يُسمِّيه: «أساس التقديس»، وهو أساس الضلال، ذهب فيه إلى أنَّ الرسل دلَّ على صدقهم العقولُ[(١)].

صحيحٌ أنه دلَّت العقول على صدقهم، ولكن هل العقول استقلَّت بهذا؟!

فإذا به يقول: الرسل جاءوا بأدلَّة، فالأدلة التي جاءت بها الرسل تكون فرعًا على العقل؛ لأنَّ العقل هو الذي دلّ على صدقهم[(٢)]. وهذا يمنع؛ أنَّنا نقدِّم الفرع على الأصل.

---

(١) انظر: أساس التقديس (ص٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٢) انظر: المرجع السابق.

إنَّ الرُّسُل جاءت بالهدى ودين الحق، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨]، الهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو عبادة الله التي تدين بها، أما العقل لا يأتي بشيء، فهو يتفق مع الوحي وإلا ضلَّ، ولا يمكن أن يكون عقل أبي بكر رضي الله عنه كعقل أبي جهل، فهذا له عقلٌ وهذا له عقلٌ، والعقول تختلف، وتحتاج إلى إرشادٍ وهدايةٍ، وإذا لم يَهْدِ اللهُ عز وجل العبدَ فلا هداية له، فالهداية بِيَدِ الله ﷻ.

* * *

﴿ «فقد قال الشافعيُّ: حُكمِي في أهل الكلامِ أنْ يُضرَبُوا بالجريد والنِّعَال، ويُطافُ بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاءُ من تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّة، وأقبل على الكلام[1]، فإذا كان هذا حكمَه فيمن أعرض عنهما، فكيف حكمُه فيمن عارضَهُما بغيرهما؟!».

الشَّرح

قوله: «فقد قال الشافعيُّ: حُكمِي في أهل الكلامِ أنْ يُضرَبُوا بالجريد والنِّعَال، ويُطافُ بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاءُ من تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّة، وأقبل على الكلام» هذا الحكم الذي ذكره الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ هو الحكمُ في أهل الكلام، يعني: الذين أعرضوا عن كتاب الله وسُنَّة رسوله، واعتاضوا بالكلام.

والكلام اسمٌ للمجادلات والكلامِ في الله، ولهذا أُطلق عليهم؛ أهل الكلام؛ لكثرة خوضِهم في هذا، بكلامٍ بلا دليلٍ، كلامٍ يستنتجونه هم، فسُمُّوا بأهل الكلام لهذا السبب.

قوله: «حُكمِي في أهل الكلامِ أنْ يُضرَبُوا بالجريد والنِّعَال»:

وذلك تأديبًا، وليست حدًّا؛ مثل ما فعل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بصبيغ، عن سليمان بن يسارٍ: «أنَّ رجُلًا يُقالُ له صبِيغٌ قَدِمَ المدينة فجعَلَ يَسأَلُ عن مُتشَابِهِ القرآنِ، فأرسلَ إليهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد أعدَّ لهُ عرَاجِينَ النَّخلِ، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبدُ اللهِ صبِيغٌ، فأخذَ عُمَرُ عُرجُونًا من تِلكَ العرَاجِينِ، فَضرَبَهُ وقالَ: أنا عبْدُ اللهِ عُمَرُ، فجعلَ يضربه حتى دَمِيَ

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» (ص٨٠).

رأْسُهُ، فقالَ: يا أَميرَ المؤمنينَ، حَسبُكَ، قد ذهبَ الذي كُنْتُ أجِدُ في رأْسِي»[١]، قال قطن بن كعب: سمعت رجلًا من بني عجل يقال له: فلان بن زرعة يحدث عن أبيه قال: «لقد رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب يجيء إلى الحلق، فكلما جلس إلى حلقة قاموا وتركوه، فإن جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين»[٢].

المقصود: أنَّ حكمَ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللهُ تبعٌ لهذا، يقول: يُضرَبوا بالجليد والنعال، كما فعل عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بصبيغ.

وقوله: «ويُطافُ بهم في القبائل والعشائر...»:

أي: أنهم يُركَبُون على حمارٍ بالخلف، بأن تُجعَل وجوهُهم إلى مُؤخَّرتِه، ويقال: هذا جزاءُ من تَرَكَ كتاب الله، ويفعل ذلك السلطان والأمير الذي يكون له حكمٌ، أما الناس فلا حكم لهم ولا سلطان، لكن يستطيعون أن يهجروهم ولا يسمعوا منهم شيئًا أو يجادلوهم، والمجادلة تكون بالعلم، والعلم الذي يُوقِفُهم على حدودهم.

وقوله: «فإذا كان هذا حكمَه فيمن أعرض عنهما، فكيف حكمُه فيمن عارضَهُما بغيرهما؟!»:

إن الذي يعارض الكتاب والسنة شيطانٌ يجادل في الباطل ليدحض الحق، قال ﷻ: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر: ٥]، ويقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [الحج: ٨].

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» برقم (١٤٦).

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» برقم (١١٣٩).

إذا كان الأمر هكذا، فالله ﷻ يعاقبهم ولا بدَّ، والعقاب قد يكون خفيًّا، بأن يُتركوا في ضلالهم ويتمادوا فيه، فهذا من العقاب العظيم.

* * *

﴿ «وكذلك قال أبو يوسف القاضي: من طلب الدِّينَ بالكلامِ تزندقَ[١]، وكذلك قال أحمد بن حنبل: ما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح، وقال: علماء الكلام زنادقة[٢]».

الشَّرح

كلام الأئمة في هذا كثيرٌ جدًّا، يحذِّرون من علم الجهمية وعلم المعتزلة؛ لأنهم هم أهل الكلام الذي لا يُبنَى كلامهم على أساس، وإنما أفكار يستنتجها الإنسان، والإنسان له أفكارٌ لا تنتهي.

* * *

(١) أخرجه وكيع في «أخبار القضاة» (٣/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٢١٣).

۞ «وكثير من هؤلاء قرأوا كُتُبًا من كتب الكلام، فيها شبهاتٌ أضلَّتهم ولم يهتدوا لجوابهم، فإنهم يجدون في تلك الكتب أنه لو كان الله فوق الخلق للزِمَ التجسيم والتحيُّز والجهة، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ، وما أراد بها أصحابُها».

الشَّرح

هذه من الشُّبَه التي يقولونها: «**أنه لو كان الله فوق الخلق للزِمَ التجسيم والتحيُّز والجهة**» لو كان الله فوق الخلق لَلَزِمَ أنْ يكون جسمًا، ولَلَزِم أن يكون متحيِّزًا، ولزم أنْ يكون في جهةٍ، فهم مثل ما سبق؛ وهذا كلامٌ لا يجوز قبولُه ولا النظر فيه، وإنما يُبَيَّنُ وجهُ بطلانِه، ويبيَّن أنَّ الحقَّ هو ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، أما كلمة (جسم، وتحيز، وجهة)، وما أشبه ذلك من الألفاظ المبتدعة التي ابتدعوها، فلا يجوز قبولُها، بل يجب أنْ تُرَدَّ على أصحابِها، ولكن إذا كان الإنسان جاهلًا يُعلَّم، ثم بعد ذلك إذا لم يقبل يجب أن يكون لله سلطانٌ يحكم فيه مثل ما كان الخلفاء يفعلون؛ حيث يُوقِفُونهم عند حدودِهم، أو أن يقتلونهم إذا كانوا زنادقة، والزنديق معناه: الذي خرج من الدِّين وصار يجادِلُ بالباطل لِيُدحِضَ به الحقَّ.

* * *



﴿ «فإنَّ ذِكْرَ لفظ (الجسم) في أسماء الله وصفاته بدعةٌ، لم ينطق بها كتابٌ ولا سُنَّة، ولا قالها أحدٌ من سلف الأمة وأئمَّتها، لم يَقُلْ أحدٌ منهم: إنَّ الله جسمٌ، ولا: إنَّ الله ليس بجسمٍ، ولا: إنَّ الله جوهرٌ، ولا: إن الله ليس بجوهرٍ».

الشَّرح

قوله: «فإنَّ ذِكْرَ لفظ (الجسم)»:

إن الله ﷻ له وجودٌ، وهو أكبر من كلِّ شيءٍ وأعظم من كل موجود، والله لم يسمِّ نفسَه جسمًا.

وعليه، فعقيدَتُنا نحن أهلَ السُّنَّةِ والجماعة لا نُسمِّيه إلا بما سَمَّى به نفسَه ﷻ، **نقول**: (الله كبير، والله عظيم، والله مستوٍ على عرشِه، والله موجودٌ تعالى وتقدَّس)، أما أنْ نُسمِّيه بشيء تقولُه: أنت؛ لا يجوز، والحكم الذي تحكمه هذا حكمٌ باطلٌ؛ لأنه قياس على المخلوقات التي تشاهدها أنت، والله لا يجوز أن يُقاسَ على شيء؛ لأنه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا فيما يلزم له من الحقوق تعالى وتقدَّس.

وقوله: «ولا: إنَّ الله جوهرٌ، ولا: إن الله ليس بجوهرٍ»:

سبق أن الجوهر هو الشيء الذي يقوم بنفسِه (في الاصطلاح)، والعَرَض الشيء الذي لا يقوم إلا بغيره؛ مثل العلم، والجهل، والصحة، والمرض، والألوان، والأحمر، والأبيض، والأسود، وما أشبه ذلك، هذه أعراضٌ لا تَجِدُها قائمةً بنفسها، ومثل ذلك: الإيمان، الشرك، الفسق، هذه كلُّها أمورٌ عارِضَة لا بد أن تقوم بمن يفعل ذلك، وهم

يقولون: إنَّ الله لا يفعل أفعالًا ولا يتَّصف به صفة، ولا يكون به أمرٌ من الأمور.

ولفظ (الجسم) أيضًا من الألفاظ التي شكَّكوا فيها ولبَّسوا فيها كثيرًا على الناس؛ لأنَّ الإنسان إذا سمع قول: إنه ليس بجسم، ظنَّ أنه ينزِّه ربه ﷻ عن النقائص، وهو في الحقيقة يريد أن ينفي ما وصفَ الله ﷻ به نفسَه؛ مثل العُلُوِّ، ومثل الرؤية، ومثل أنَّ له يدًا أو له رجلًا، أو أنه ينزل، أو ما أشبه ذلك.

وكذلك بقية ألفاظهم التي يتلفظون بها مثل العرض، قالوا: إن الله ليس بعرض، يعني: أنه ليس له صفة؛ ليس له سمع، ولا علم، ولا إرادة، ولا غير ذلك، هذا مرادُهم!.

* * *

ﷺ «ولفظ الجسم لفظٌ مجمَلٌ، معناه في اللغة هو البدن، ومن قال: إنَّ الله مثل بدن الإنسان فهو مفترٍ على الله، ومن قال: إنَّ الله يماثل شيئًا من المخلوقات فهو مفترٍ على الله، ومن قال: إنَّ الله ليس بجسمٍ، وأراد بذلك أن الله لا يماثل شيئًا مِنَ المخلوقات، فالمعنى صحيحٌ، وإن كان اللفظُ بدعةً، وأما مَن قال: إنَّ الله ليس بجسمٍ، وأراد بذلك أنه لا يُرَى في الآخرة، وأنه لم يتكلَّم بالقرآن العربيِّ، بل القرآن العربي مخلوقٌ أو تصنيفُ جبريل، ونحو ذلك، فهذا مفترٍ على الله فيما نفاه عنه».

الشَّرح

على كلِّ حالٍ: لفظُ (الجسم) و(العَرَض) و(الجوهر) ألفاظ مبتدعة، وما أشبه ذلك؛ مثل (الجهة) و(التحيُّز)، وكل ألفاظهم التي يأتون بها، كلُّها ألفاظ مبتدعة مخترعة وضعوها للفساد وتضليل العباد، فالواجِبُ ردُّها أصلًا، ولكن لا يستطيع الإنسان أنه يحكم حكمًا عامًّا عليهم، قد يكون فيهم من يريد الحقَّ ولكنه أخطأه، فيبيِّن الحقُّ، حتى يتبعه.

قوله: «ولفظ الجسم لفظٌ مجمَلٌ، معناه في اللغة هو البدن...» الجسم هو البدن في اللغة[1]، قال الله ﷻ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

هذا المقصود من أن الجسم هو البدن، في لغة العرب، لم يأتِ هذا في صفة الله ﷻ.

(١) انظر: «العين» للخليل بن أحمد (٦/ ٦٠)، و«تهذيب اللغة» للهروي (١٠/ ٣١٦)، مادة (جسم).

أما الجسم الذي يصطلحون عليه هو الذي لا يشغل مكانًا ولا يكون في مكانٍ ولا يُرى، ولا يتكلم؛ لأنهم يقولون: الكلام يحتاج إلى لسان ولهاة وحنجرة وشفتين إلى آخره، ومكمن الخطأ أنهم ينظرون إلى نفوسهم، ويقيسون عليها ربَّ العالمين، تعالى الله وتقدَّس.

وقوله: «**ومن قال: إنَّ الله ليس بجسم...**» **نقول:** هذا ما وصف الله ﷻ نفسَه به، ونحن ما نَصِفُ الله إلاَّ بما وَصَفَ به نفسَه، ولكن إذا كان مرادُك أنَّ الله ليس فوق، وليس مستويًا على العرش، وليس له كلامٌ يتكلم به، وأنه لا يرى؛ فهذا باطلٌ لفظًا ومعنًى.

* * *

ﷺ «وهذا أصلُ ضلال الجهمية والمعتزلة ومن وافَقَهم على مذهبهم، فإنهم يظهرون للناس التنزيه، وحقيقة كلامهم التعطيل، فيقولون نحن لا نجسِّم، بل نقول: إنَّ الله ليس بجسم، ومرادهم بذلك نفيُ حقيقة أسمائه وصفاتِه، فيقولون: ليس لله علمٌ ولا حياةٌ ولا قدرةٌ ولا كلامٌ ولا سمعٌ ولا بصرٌ، ولا يُرى في الآخرة، ولا عُرِّج بالنبي ﷺ إليه، ولا ينزل منه شيءٌ، ولا يصعد إليه شيءٌ، ولا يتجلَّى لشيء، ولا يَقْرَب إلى شيء، ولا يَقْرَب منه شيء، ويقولون: إنَّه لم يتكلم بالقرآن، بل القرآن مخلوقٌ أو هو كلام جبريل، وأمثال ذلك من مقالات المعطِّلة الفرعونية الجهمية».

الشَرح

هذا حقيقة قولهم، فهم يأتون بألفاظٍ مجمَلةٍ مبتدعة، ووراءها أمورٌ كُفرِيَّة، يريدون بها خلاف ما جاءت به الرسل.

وقوله: «وهذا أصل ضلال الجهمية والمعتزلة ومن وافَقَهم على مذهبهم..»:

يعني هذه الكلمات المبتدعة الضالة التي وضعوها هو أصلُ ضلالهم، والجهمية من المعتزلة، هذا يدلُّ على أنَّ المعتزلة جهمية، وكذلك الأشاعرة هم جهمية في الواقع.

الجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان الترمذي، الذي هو من أهل الضلال وأصل هذه البدعة، والجهم بن صفوان شيخُه في الضلال الجَعْد بن درهم، والذي قتله خالد بن عبد الله القسري رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال جمال الدين القاسمي الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه: «تاريخ الجهمية والمعتزلة»: «التنبيه لما وقع من خلل النقل عن الجهمية

وغيرهم: أرى من الواجب كل من يؤرخ مذهب قوم، وكل من يناقش فرقة ما في مذهبها، أن ينقل آراءها عن كتب علمائها الثقات، ويقوم بالعزو إلى مآخذها ومصادرها، لتكون النفس في طمأنينة مما يريبها إن لم يعن بهذا الواجب، هذا كله إذا أمكن الظفر بكتبها نفسها، وآرائها التي دونتها رجالها، وإلا فعلى النَّهِم بتعرف الحقائق أن يأثر عن كتب الأئمة المحققين ما أثروه، ويبني على ما بنوه، مع التحري والتيقظ، وما على باذل جهده من ملام. وبالجملة فلا بد من السند في قبول ما يعزى ويروى إلى تلك الفرقة، فإما عن إسفارها أو عن إمام ثقة أثر عنها، وأما رمي فرقة برأي ما بدعوى أنه قيل عنها ذلك أو يقال، فمما لا يقام له وزن في الصحة والاعتبار، فلا يتعانى في رده أو مناقشته، وهذه القاعدة يجب أن تؤخذ دستورًا وأمرًا عامًا في كل ما يؤثر وينقل...»[١]

يقول: ما وجدنا كتابًا من كُتُبِهم حتى نحتجَّ به، وإنما نأخذ الكلام عنه من أعدائه الذين يردُّون عليه؛ يعني: أهلَ السنة!.

كذلك خالد العلي، كتب رسالةً في الجهم بن صفوان، وتكلم عنه كما كتب القاسمي، وأنه ليس عنده يقينٌ فيما يقال عنه[٢].

وهذه عجيبةٌ من العجائب!

ومعنى ذلك: إتهام أهل السنة بأنهم يرمون الجهمية بما ليس فيهم؛ فيظلمونهم! وهذا لا يقوله إلا من لم يعرف مذهبهم وينظر فيما عطلوا الله تعالى عما وصف به نفسه.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ثمَّ أصلُ هذه المقالةِ ـ مقالةِ التَّعطيلِ للصِّفاتِ ـ إنَّما هو مأخُوذٌ عن تلامذةِ اليهودِ والمشركينَ وضُلَّالِ الصَّابِئين؛ فإنَّ أوَّلَ من

---

(١) انظر: «تاريخ الجهمية والمعتزلة» للقاسمي (ص٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٨٥).

حُفِظَ عنه أنَّه قال هذه المقالةَ في الإسلامِ ـ أعْنِي أنَّ الله ﷻ ليس على العرشِ حقِيقَةً وأنَّ معنى استوى بمعنى اسْتَولَى ونحو ذلك ـ هو الجعد بن درهمٍ وأخذهَا عنه الجهم بن صفوان؛ وأظهرها فنُسِبتْ مُقالةُ الجهمِيَّة إليه. وقد قِيلَ إنَّ الجعد أخذ مقالته عن أبانَ بنِ سمعانَ وأخذها أبانُ عن طالوتَ بنِ أُخْتِ لبِيَدِ بن الأَعصمِ وأَخذها طالوتُ من لبِيدِ بن الأعصمِ: اليهودِيِّ السَّاحِرِ الذي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ»[١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فقد حُكِيَ عن الجهمِ بن صفوان: أَنَّهُ تَركَ الصَّلاة أربعين يومًا لا يَرَى وجوبها»[٢].

وقد سُئل رَحِمَهُ اللهُ عن رَجُل قال: «إنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا». وإنَّما خَلَقَ الكلامَ والصَّوتَ في الشَّجرةِ، ومُوسى ـ عليه السَّلامُ ـ سَمِعَ من الشَّجرةِ، لا مِنْ اللهِ، وإنَّ اللهَ ﷻ لم يُكَلِّمْ جبرِيلُ بالقرآنِ، وإنَّما أخذهُ من اللوحِ المحفوظِ، فهل هو على الصَّوابِ أم لا؟

الجوابُ: الحمد للهِ، ليسَ هذا الصَّوابَ، بل هو ضالٌّ مُفتَرٍ كاذبٌ باتِّفاقِ الأُمَّةِ وأئِمَّتِها، بل هو كافرٌ يجبُ أن يُستتَابَ، فإن تابَ وإلا قُتِلَ، وإذا قال: لا أُكذِّبُ بلفظِ القرآنِ وهو قولُهُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] بل أُقِرُّ بأنَّ هذا اللَّفظ حقٌّ، لكن أَنْفِي معنَاهُ وحقِيقَتَهُ، فإنَّ هؤلاء هم الجهمِيَّةُ الذين اتَّفقَ السَّلَفُ والأئِمَّةُ على أنَّهم من شرِّ أهلِ الأهواءِ والبِدعِ، حتَّى أخرجهم كثِيرٌ من الأئمَّةِ عن الاثنينِ وسبعِينَ فِرْقَةً. وأوَّلُ من قال هذِهِ المقالَةَ في الإسلامِ كانَ يُقالُ لهُ: جعدُ بنُ درهمٍ، فضحَّى بِهِ خالد بن عبد الله القَسْرِيُّ يوم أضحَى، فإنَّهُ خَطبَ النَّاس فقالَ في خُطبَتِهِ: ضحُّوا أيُّها النَّاسُ يَقبَلِ اللهُ ضحاياكُمْ، فإنِّي مُضحٍّ بالجعدِ بن درهمٍ، إنَّهُ زعمَ أنَّ اللهَ لَمْ

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٤).

يَتَّخِذْ إبراهيمُ خلِيلًا، ولَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكلِيمًا، تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الجعدُ علُوًّا كبِيرًا ثمَّ نَزَلَ فذَبَحَهُ وكان ذلكَ في زمنِ التَّابِعِينَ، فشكَرُوا ذلك.

وأخذَ هذهِ المقالَةَ عنه الجهمُ بنُ صفوانَ وقَتَلَهُ بِخُراسَانَ سَلَم بنُ أحْوَزَ، وإليهِ نُسِبَتْ هذهِ المَقَالَةُ التي تُسمَّى مقَالَةَ الجهمِيَّةِ، وهي نفْيُ صِفاتِ اللهِ تعالى، فإنَّهم يقُولُونَ: إنَّ اللهَ لا يُرَى في الآخرةِ، ولا يُكلِّمُ عِبَادَهُ وإنَّهُ ليسَ لهُ علْمٌ، ولا حياةٌ ولا قُدْرَةٌ ونحوُ ذلك من الصِّفَاتِ ويقولونَ القرآنُ مخلوقٌ[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فقد قُتِلَ الجهمُ بن صفوان والجعدُ بن درهم وغيلانُ القدرِيُّ ومحمد بن سعيدٍ المصلوبُ وبشَّارُ بن بردٍ الأعمى والسُّهروردي وأمثالُ هؤلاء كثيرٌ ولم يَقُلْ أهلُ العلمِ والدِّينِ في هؤلاء إنهم قُتِلُوا ظُلمًا وأنَّهم كانوا من أولياء اللهِ»[2].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «كلام السَّلفِ في هذا الباب موجودٌ في كُتُبٍ كثيرةٍ لا يمكن أن نذكُرَ ههُنا إلَّا قليلًا منهُ؛ مثلَ كتاب «السُّننِ» للالكائي و«الإبانة» لابن بطَّةَ و«السُّنَّة» لأبي ذرٍّ الهروي و«الأصول» لأبي عمرو الطلمنكي وكلام أبي عُمرَ بن عبد البرِّ و«الأسماء والصِّفاتِ» للبيهقي وقبلَ ذلكَ «السُّنَّةُ» للطبراني ولأَبِي الشَّيخِ الأصبهاني ولأَبِي عبد الله بن منده ولأَبِي أحمد العسَّالِ الأصبهانيين. وقبلَ ذلكَ «السُّنَّة» للخلَّالِ و«التَّوحيد» لابنِ خُزيمة وكلامُ أبي العبَّاسِ بن سُريجٍ والرَّدُّ على الجهمِيَّة لجماعة: مثلَ البخاريِّ وشيخِهِ عبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي وقبلَ ذلك «السُّنَّةُ» لعبد الله بن أحمد و«السُّنَّةُ» لأبِي بكر بنِ الأثرَمِ و«السُّنَّةُ» لحنبل، وللمروزي ولأبي داوُد السجستاني ولابن أبي شيبةَ و«السُّنَّةُ» لأبي بكرِ بن

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩).

(٢) «الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي»، المكتبة الأهلية ببغداد، سنة ١٩٦٥.

أبي عاصِم، وكتابُ «خلْق أفعالِ العِبَاد» للبخاريِّ، وكتابُ «الرَّدِّ على الجهمِيَّة» لعثْمان بن سعيدٍ الدارمي وغيرهم. وكلامُ أبي العبَّاس عبد العزيز المكِّيِّ صاحبِ «الحَيْدَةِ» في الرَّدِّ على الجهميَّة، وكلامُ نُعَيْمِ بن حمَّادٍ الخزاعي، وكلامُ غيرِهم، وكلامُ الإمامِ أحمد بن حنبلٍ»[١].

وكلام الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في هذا معروفٌ، هو وغيره من الأئمة؛ حيث أفْتَوا بتكفير الجهمية، وهذا كثيرٌ جدًّا.

وهم ينصُّون على أنَّ الجهمية كفارٌ؛ لأنهم يقولون: (القرآن مخلوقٌ)، و(الله لا يُرى)، فهم بقولتهم هذه يكذبون بكتاب الله، بل يردُّونَه، ومن ردَّ شيئًا من كتاب الله فلا شكَّ في تكفيره.

وقوله: «ومن وافَقَهم على مذهبهم، فإنهم يظهرون للناس التنزيه، وحقيقة كلامهم التعطيل»:

يعني: تعطيل الله جَلَّ وَعَلَا عما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله.

وقوله: «فيقولون نحن لا نجسِّم، بل نقول: إنَّ الله ليس بجسمٍ...»: المقصد من قولتهم هذه أنَّ هناك من الناس من يجسِّمون، - يقصدون أهل السنة! -، الذين يُثبِتون أن لله يدًا، ويثبتون أن لله وجهًا، ويثبتون أنه مستوٍ على عرشه، فهذا عندهم من التجسيم.

وهم بذلك ينكرون مثل صفات الله وينكرون كلام الله، وأنَّ الله لا يسمع ولا يبصر ولا يُرى في الآخرة، ولا عُرِّج إليه النبيُّ ﷺ، ولا ينزل منه شيءٌ!

وما سبق فيه إنكارٌ للإسلام بالجملة.

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠).

ﷺ «والله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ أي لا تُحيط به، فكما أنه يعلم ولا يُحاطُ به علمًا، فكذلك ﷻ يُرى ولا يُحاط به رؤيةً، فهو ﷻ نفى الإدراكَ ولم يَنْفِ الرُّؤية، ونفيُ الإدراك يدلُّ على عظمتِه، وأنه من عظمتِه لا يُحاطُ به، وأما نفيُ الرؤية فلا مدحَ فيه، فإنَّ المعدومات لا تُرى، ولا مدحَ لشيء من المعدومات، بل المدح إنما يكون بالأمور الثبوتيَّه لا بالأمور العدميَّة، وإنما يحصل المدح بالعدم إذا تضمَّن ثبوتًا؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنزَّه نفسه عن السِّنَة والنَّوم؛ لأن ذلك يتضمن كمالَّ حياتِه وقيُّومِيَّتِه، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فهو سبحانه حيٌّ لا يموت قيومٌ لا ينام، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، فنزَّه نفسه المقدَّسة عن مسِّ اللُّغوب، وهو الإعياء والتَّعب ليتبيَّن كمال قدرته».

الشَّرح

يقصد في هذا قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الإحاطة؛ أي: لا تحيط به الأبصار، ولا يكون هذا دالًّا على نفي الرُّؤية.

والجهميةُ إذا كان لهم مدخل في دليلٍ سمعيٍّ من الكتاب والسنة تعلقوا به وقالوه، أما إذا لم يكن لهم مدخلٌ، لا يقولون به أبدًا!، وهم يستدلُّون بهذا على نفي الرُّؤية، أنَّ الله لا يُرَى؛ لأنَّ الإدراك غير الرؤية، ولهذا يقول الله ﷻ في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ

مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فنفى الإدراك مع وجود الرؤية، كلٌّ فريقٍ يرى الآخر، فالإدراك غير الرُّؤية، وسُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن مثل هذا؛ فقال: «ألَسْت تَرَى السَّماءَ؟». قال: «بلَى» قالَ: «أفكُلَّهَا تَرَى؟»[1]، وهكذا الشمس وغيرها، ولله المثل الأعلى، فالله لا يُحاط به تعالى وتقدَّس، وهو المحيط.

المقصود: أنَّ مذهبهم النفي الخالص، وهذا لا يدخل في صفات الله، إذا جاء نفي في صفات الله، فالمقصود به نفيُ المذكور وإثبات كمالِ ضدِّه؛ معنى هذا: إذا قال الله جل جلاله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، ليس المقصود نفيَ الظُّلم فقط، بل المقصود نفي الظلم وإثبات كمال العدل، وهكذا إذا قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾، يعني: نفي اللغوب والإعياء وإثبات كمال القدرة، وكذلك نفي السِّنَة والنَّوم، وما أشبه ذلك، وكلُّ نفيٍ يأتي في الكتاب والسُّنَّة ليس معناه نفيًا محضًا لا إثبات فيه!، فهذا لا يأتي في صفات الله أبدًا.

* * *

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٨٨)، والدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٦٣).

﴿ «فهو ـ سبحانه ـ موصوفٌ بصفات الكمال، مُنزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، موصوفٌ بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، مُنزَّهٌ عن الموت والجهل والعجز والصَّمم والعَمَى والبَكَم، وهو سبحانه لا مِثْلَ له في شيء من صفاتِ الكمال، وهو منزَّه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، فإنه قدوسٌ سلامٌ يمتنع عليه النقائص والعيوب بوجهٍ من الوجوه، وهو سبحانه لا مثلَ له في شيء من صفات كماله، بل هو الأحد الصمد الذي لم يَلِد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد».

الشَّرح

أن الله له الكمال المطلق في كِّل شيء، فله الكمال في الثبوت، والكمال فيما ينفي عن نفسه، والكمال في ذاتِه، والكمال في أفعاله وغيرها.

هذه قاعدةٌ يجب أن تكون ثابتةً عند كلِّ مسلمٍ، فهو سبحانه موصوف بصفاتِ الكمال، وهذا معنى كون أسمائه الحسنى وصفاته عليا؛ أي: لا يتطرق إليه نقصٌ ولا عيبٌ بوجهٍ من الوجوه.

أما إذا كانت الصفة تتضمَّن كمالًا ويتطرَّق إليها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، فهذه لا تدخل في صفات الله، بل تدخل في صفات المخلوقين.

قوله: «فهو ـ سبحانه ـ موصوفٌ بصفات الكمال، مُنزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ...»:

هذه قاعدةٌ لازمةٌ، ولكن لا تأتي المنفيات هكذا مفصَّلة في حقِّ الله، يقال: ليس ميتً، ليس جاهلًا، ليس عاجزًا... إلى آخره.

وقوله: «مُنزَّهٌ عن الموت والجهل والعجز والصَّمم والعَمَى والبَكَم...»:

يعني: إذا قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١٢]، يكفي، وإذا قال: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، كفى في هذا.

يعني: القاعدة أنَّ النفي يأتي مُجمَلًا في حقِّ الله، والإثبات يأتي مُفصَّلًا، عكس ما يقوله المتكلمون تمامًا، والمتكلمون إذا أثبتوا جاءوا بأمورٍ مُجملةٍ، قالوا: إنَّ الله شيء، إن الله موجود، وما أشبه ذلك، وإذا جاء النفي يفصِّلوه: ليس فوقًا، ليس يمينًا، ليس شمالًا إلى آخره، فهذا عكس ما وصف الله ﷻ به نفسَه!، فعند النفي يُجمَل الكلامُ، وعند الإثبات يُفصَّل، فهذه القاعدة التي جاء بها الكتاب والسُّنَّة.

وقوله: «بل هو الأحد الصمد الذي لم يَلِد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد...»:

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: الصَّمَدُ فُسِّرَ بأنه الذي لا جوف له، لا يأكل ولا يشرب[1]، ولهذا ردَّ الله ﷻ على النَّصارى في دعواهم أن عيسى عليه السلام هو الله، فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهل الذي يأكل الطعام يكون إلهًا؟! لا يكون إلهًا، فالذي يأكل فقيرٌ يحتاج إلى الأكل، ويحتاج إلى قضاء الحاجة، وهذا لا يمكن، وهذا يكفي في إبطال مذهبهم وقولهم.

وقيل: إنَّ الصمد هو الذي صَمَد في نفسه وقام بنفسِه واستغنى،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٨٩).

صار غنيًّا بنفسه وصمد إليه كلُّ أحدٍ، كلٌّ محتاجٌ إليه[١].

فالصَّمدُ يفسَّر بهذا وهذا، وبعضهم يفسره، فيقول: الّذي لم يلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكُن لَّهُ كُفُوًا أحدٌ﴾[٢].

يقولون: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾؛ أي: ليس له نظيرٌ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

* * *

(١) المصدر السابق (٢٤/ ٦٩٢).

(٢) المصدر السابق (٢٤/ ٦٩١).

﴿ «ولهذا كان مذهبُ سلفِ الأمة وأئمَّتِها أنهم يَصفِون الله تعالى بما وَصَفَ به نفسَه، وبما وَصَفَ به رسولَه ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، فيثبتون له ما أثبته لنفسِه مِنَ الأسماء والصِّفات، وينزِّهونه عما نَزَّه عنه نفسَه من مماثلة المخلوقات، إثباتٌ بلا تمثيلٍ وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ ردٌّ على الممثِّلَه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ردٌّ على المعطِّلة.

الشَّرْح

يعني: أنَّ مذهب السَّلف اتِّباع الكتاب والسُّنَّة، في أوصاف الله ﷻ التي تَعرَّف بها إلى عبادِه، العباد يعرفون ربَّهم بأوصافِه وبأسمائه بالتي يتَّصِف بها، وكذلك بأفعاله التي يفعلها من المخلوقات وغيرها.

قوله: «أنهم يَصفِون الله تعالى بما وَصَفَ به نفسَه، وبما وَصَفَ به رسولَه ﷺ، من غير تحريفٍ...»:

التحريف مأخوذٌ من الحرْفِ وهو جانب الشيء؛ يعني: أنَّ الكلام يُحرَّف إلى جهةٍ غير مقصودةٍ للمتكلم، فهذا شأنُ اليهود وأهل الباطل، وكذلك الجهمية ونحوهم.

وقوله: «ولا تعطيلٍ»:

التعطيل هو أصلُه من الخلو والفراغ، ويقال: جِيدٌ عاطلٌ في لغة العرب، و(الجيدُ) يعني: الرقبة، و(عاطل) يعني: ليس فيه حُلِيٌّ، المرأة إذا كان ليس عليها حُلِيٌّ قيل: جيدها عاطل، قال الله ﷻ: ﴿وَبِئْرٍ

﴿مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝﴾ [الحج: ٤٥]، يعني: مُعطَّلة عن العمل، لا استعمال لها، وإخراج الماء مُعطَّل، فالتَّعطِيل هو الخلو والفراغ من الشيء.

ومعنى التعطيل هنا؛ تعطيلُ الكلام عن معانِيه، يُعطِّل الكلام عمَّا أراده المتكلم، فأهلُ السُّنَّة لا يقولون بهذا فلا يعطِّلون، بل يُثبِتون ما أثْبَته الله ﷻ من الكلام من اللَّفظ والمعنى.

وقوله: «ومن غير تكييفٍ»:

التكييف فهو كيفية الشيء وحالته التي هو عليها، هذه الكيفية تحتاج إلى مشاهدة ورؤية، وأقلُّ ما يقال: إنها تحتاج إلى من يكون له مثيلٌ، والله ﷻ لا يُرى ولا مَثِيلَ له، وليس المعنى نفيَ الكيفية مطلقًا، وإنما المقصود نفي العلم بالكيفية، فلا أحدَ يعلم كيفيته.

وقوله: «ولا تمثيلٍ»:

التمثيل أن يكون له مثلٌ، تعالى الله وتقدس.

وقوله: «فيثبتون له ما أثبته لنفسِه مِنَ الأسماء والصِّفات، وينزِّهونه عما نَزَّه عنه نفسَه من مماثلة المخلوقات...»:

المماثلة هي التمثيل، والإثبات: ضدَّ التعطيل.

وقوله: «... إثباتٌ بلا تمثيلٍ وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ»:

التنزيه أن يُتبَع ما قاله في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، هذا الذي يتبعه أهل السُّنَّة، ما يكون له نِدٌّ ولا مِثْلٌ تعالى وتقدس، لهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فقوله:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على الممثِّلَه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾ ردٌّ على المعطِّلة.

* * *

۞ «قال بعض العلماء: المعطِّل يَعبُد عدمًا، والممثِّل يَعبُد صنمًا.

۞ فالمعطِّل أعمى، والممثِّل أعشى، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

۞ والسُّنَّة في الإسلام كالإسلام في الملَلِ، فأهلُ السُّنَّة وسطٌ في الصفات بين أهل التمثيل وأهل التعطيل.

۞ وهذا هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقًا.

۞ فنسأل الله العظيم أن يجعلنا وسائر إخواننا منهم بفضلِه ورحمته، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، والله سبحانه أعلم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

۞ وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الشَّرح

قوله: «قال بعض العلماء: المعطِّل يَعبُد عدمًا»:

لأن المعبود يجب أن يكون له صفاتٌ، وله أسماءٌ، وله أفعالٌ، وله مخلوقاتٌ، يُعرَف به تعالى وتقدس، والمعطِّل لا يَعرِفُ ربَّه، فإذًا كيف يعبده؟!

وقوله: «والممثِّل يَعبُد صنمًا»:

لأن الله ليس له مثلٌ، فإذا عَيَّن له مثلًا فهو باطل، وخارجٌ عن الدليلِ وما جاء به الإسلام.

وقوله: «فالمعطِّل أعمى، والممثِّل أعشى»:

الأعمى خيرٌ منه، فالأخير أعمى البصر، أما المعطل فهو أعمى القلب، وكذلك الأعشى الذي يُبصِر بالنهار ولا يُبصِر بالليل، وقد يسقط في الحفر وغيرها فهو أفضل منه، وخيرٌ منه، وهو في الواقع عمى القلب، الذي نهايته جهنم، نسأل الله العافية.

وقوله: «ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه...»:

الغالي هو المشبِّه، والجافي هو المعطِّل والنَّافي؛ الذي ينفي.

وقوله: وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، الوسط هما الخيار العدول، والإسلام وسطٌ في الأديان كلِّها، فهو خيرها وأفضلها، وأهل السُّنَّة وسطٌ في المتكلِّمين؛ لأنَّ الأمة اختلفت، عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ بني إسرائيل تفرَّقَتْ على ثِنْتَيْنِ وسَبعِينَ مِلَّةً، وتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثلاثٍ وسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ في النَّارِ إلَّا مِلَّةً واحِدَةً، قالُوا: ومن هي يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: ما أنَا عليهِ وأَصحَابِي**»[1]، فهذه الفرق كلُّها ضلالٌ، قال جل وعلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

والحقيقة أنَّ هؤلاء المختلفين الذين تفرَّقوا إلى ثلاثٍ وسبعين فرقةً، هؤلاء هم أمة الإجابة، الذين استجابوا للنبي ﷺ، اختلفوا هذا الاختلاف، وإن كان هذا لا يدلُّ على كفرهم مطلقًا، ولكن يدلُّ على

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة برقم (٢٦٤٠)، وأحمد في «مسنده» برقم (٨٣٩٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٦٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣).

أنهم من أهل الوعيد، وأن الوعيد واقعٌ عليهم وقد يُعذَّبون، قد يدخلون النار، ومنهم من سيخلَّد في النار، وقد يعفو الله عنهم.

أهل السُّنَّة وسطٌ بين هذه الفرق، لا أهلُ الجفاء ولا أهلُ الغُلُوِّ، الغلوُّ الذي هو الزيادة على الحقِّ، الغلو أن يزيد على الحقِّ، الغالي هو الزائد، وقد نهى الله ﷻ عن الغلو، قال ﷻ: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»[1]، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» قالها ثلاثًا[2].

أما الجفاء فهو الامتناع عن الاتِّباع، وكذلك القصور والمعصية والإباء، وغير ذلك، والشرُّ كلُّه يأتي من هاتين الناحيتين، إما زيادة على الحقِّ أو نقصٌ فيه، فإذا سَلِم الإنسان من هذين الأمرَين يكون وسطًا، ودين الله وسطٌ، وهو الصراط المستقيم الذي هدى الله إليه من يشاء، وهو دين الرسل والصالحين والشهداء الذين اختارهم الله ﷻ.

نسأل الله ﷻ أن يهدينا بالهدى، ويزيِّنَّا بالتقوى، ويبين لنا الحقَّ ويرزقنا اتِّباعَه، ويبين لنا الباطِلَ ويرزقَنَا اجتنابَه، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمدٍ.



---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» برقم (٣٠٢٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٤٠٤٩)، وابن حبان في «سننه» برقم (٣٨٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» برقم (١٦٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٢٧٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» باب هلك المتنطعون برقم (٢٦٧٠).

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة